صفحات من تاريخ الحروب الصليبية

مفاتيح القدس

عبد العال الباقورى

صفحات من تاريخ الحروب الصليبية

مفاتيح القدس

صفحات من تاريخ الحروب الصليبية

"الجزء الثالث"

مفاتيح القدس

المؤلف

عبد العال الباقورى

التجهيزات الفنية

دار الهدى

الطبعة الأولى

1998



دار الهدى للنشر والتوزيع

6 ش المجرى – شاهين – المنيا

ت 346713 / 086

رقم الإيـــداع: 98/5632

الترقيم الدولى: 2 ـ 12 ـ 5822 ـ 977

الحروب الصليبية. لماذا ؟

فـى سبتـمبر (أيلـول) 1967، عـام الهزيمـة العربيـة الكبـيرة، احتفـل الصهايـة بمـرور سبعين عاماً علـى المؤتـمر الصهيونـى الأول، الـذى عقـد فـى مدينـة "بـال" السويسرية عـام 1897. وعقـد الحفـل التذكـارى فـى نفـس القاعـة التى شـهدت انعقـاد المؤتـمر الصهيونـى الأول

ودعـى الجـنرال اسـحق رابـين ـــ قـائد عـدوان 1967 ورئيـس وزراء إسرائيل فيما بعـد ـ دعـى إلى الحديـث فى هـذا الحفـل التذكـارى.

أثـار رابـين دهشـة الحـاضرين عندمـا قـال قـرب نهايـة خطابـه:

"إن أعظـم خطـر يهـدد إسـرائيل هـو انكمـاش الهجرة إليها تـماماً كمـا تدهـورت دولـة الصلسيـين عندمـا افتقـرت إلى دمـاء جديـدة".

إن "نهايـة" الحـروب الصليبيـة تـمثل للصهيونيـة "مسـتقبلها"، وهـى ـــ على ألسنة كثـير مـن مفكريهـا ـ تتوقـع هـذا، وتحـاول أن تتجنبـه.

لا يعنـى هـذا أن "الدولـةَ الصُهيونيـةَ" صُـورةٌ طبـق الأصـلِ مـن "المملكـة الصليبيـة" التـى قـامت فـى نفـس المكـان فـى العصـور الوسـطى، وبَقِيـتْ حـوالى قرنـين.

ولكـن أوجـه التشـابهِ كثـيرة.. وأوجـه الخـلاف أيضـاً. فهنـاك ظـروف مختلفـة ومتغيرة، وفـرق كبـير بـين ظـروف وأوضـاع عالـم القـرون الوسـطى وبـين ظروف وأوضـاع عالـم النصـف الثـانى مـن القـرن العشـرين.

ومع ذلك، يقارن الكاتب الصُهيونى يورى افنيرى بين البابا "أيربان الثانى" حامل لواء الدعوة إلى الحروب الصليبية، و"هيرتزل" حامل لواء الدعوة الصُهيونيةِ وإنشاء "الدولة العِبْرِيةِ"، كما يقارن بين "مؤتمر بال" و"مجمع كليرمونت" الذى انطلقت منه شرارة الحروب الصليبية، وبين بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل و"بالدوين الأول" أول ملك لمملكة بيت المقدس الصليبية.

ويقول هذا الكاتب الصهيونى: إن أوجه التَشابه عَديدةٌ.. ثم يحاول أن يؤكِّدَ أن أوجه الاختلاف بين الدولة العِبرِيةِ والدولة الصليبية كثيرة وعميقةٌ. وكأنه يحاول أن يقول أن إسرائيل يمكن ألا تلقى مصير الدولة الصليبية نفسه.

ومرةٌ أخرى، وليست أخيرة: إن المُقارنةَ الآلية بين الماضى والحاضر غير صحيحة، والتاريخ لا يكرر نفسه بشكل آلىٍّ أو غبىٍّ.

ومع ذلك، يَعترفُ افنيرى:

"لقد حَكَمتْ مملكة الصليبيين فى القُدسِ على نفسها بالدمار، عندما اعتمدت كُليةً على تنظيمها العسكرى المُتفُوق وشجاعتها. إن العمليات العسكرية الباهرةِ التى حَملتْ الصليبيين إلى قلب مصر تُخفى وراءها المشاكل الحقيقية التى حددتْ مَصِيرَهم فى النهاية. هذه المشاكل مازالت قائمةً اليوم بالنسبة لإسرائيل..".

ماذا يعنى هذا ؟

يعنى أن قراءة الحروب الصليبية بدقَةٍ عملية مفيدة فى هذا الوقت بالذات، إنها تُساعدُ فى إحياء الأمل الكامن والعظيم، كما تساعدُ فى

اقتلاع جـذور اليأس الثقيل.

إن انقسـامات وخلافـات "العـرب" اليـوم ـ وأمـس القريـب ـ فـى مُواجَهـةِ إسـرائيل أقلُّ حِدة بكثـيرٍ جـداً مـن انقسـامات وخلافـات العـرب ـ المسلمين ـ فى مواجهـة العـدوان الأوربـىِّ الـذى وصِـفَ بـالصليبىِّ.

يقـول المؤرخ العظيـم ستفين رنسـيمان:

"إن سياسـات العالـم الإسـلامىِّ فى أوائـل القـرن الثـانى عشـر كـانت بَعيدةً عـن أى تفكـير سـليم".

دخـل الصليبيـون القُـدسَ فـى 1099.. وحتـى1143 كـانوا يُحـاولون تثبيـت دعـائم دولتهـم. وانقسـام العالـم الإسـلامىِّ أتـاح للصليبيـين الاسـتقرار فى المنطقـة التى استعمروها.. ولـم ينجـح الصليبيـون بسـبب قوتهـم، ولكـن بسـبب ضعـف القُـوَى الإسـلامية، وتفككِهـا وانقسـامها، وانشـغالها بـالحروب ضِدَّ بعضهـا البعـض.

ولـو أن المسـلمين فى منطقـة "الشـرق الأوسـط".. أو علـى الأقـل فـى العـراق والشـام ومصـر، أقـاموا جَبهـةً مُتحـدةً، لنجحـوا فـى القضـاء علـى الجماعـات الصليبيـة فى بـلاد الشـام، وتطهير الوطـن العربى منهـا قبـل أن تقـوى وتَتدعَّـمَ.

فى ذلـك الوقـت، وعندمـا جـاء الصليبيـون كـانت بـلاد الشـام تَعـومُ فـى بَحرٍ مـن الفَوضَـى.

كـان الخـلاف عَميقـاً بـين دولـة السـلاجقة التـى تحكـم إيـران والعـراق وتركيا، وهـى دولـة "سـنية"، وبـين الفـاطميين حكـام مصـر وهـم "شِيعَةٌ".

وكـان هنـاك حـروب بـين السـلاجقة وبعضهـم كـانت اتجاهـاتهم مُتنَـافرةً، وأهدافهـم مُتضَاربـه، ومواردهـم الماليـة مبـددة

وكـانت "الخلافـة العباسـية" فـى لحظـات الاحتضـار، اسمـاً بـدون مُسمًّى. ومجـرد شـكل.

وفى مصـر، احتفـظ الفـاطميون بجيشـهم داخـل البـلاد.. وأحيانـاً بعثـوا بقوّاتٍ قَليلةٍ. ولـم يُعبِّئوا قـوة البـلاد، رَغـم أنـه لـم تكـن تنقصُهـم الإمكانيـات.

أكـثر مـن هـذا، حـاول الفـاطميون أن يتحـالفوا مـع الصليبيـين ضِـدَّ السـلاجقة، علـى أمـل أن يمنـع ذلـك الصليبيـين مـن الزحْـفِ علـى الأمـلاك الفاطمية فـى الشـام.

وبدورهـم، حـاول الصليبيـون اسـتغلال هـذا الانقسـام العَربـيِّ ـ الإسـلاميِّ والاستفادة منـه.. فتحـالفوا مـع بعـض الأمـراء، وعملـوا علـى عَـزلِ الشام، وعملـوا لإبعاد القـاهرة عـن دمشـق.

واحتـاج العالـم العَربىُّ ـ الإسـلامىُّ إلى حـوالى خمسـين سـنة كـى يفيـق، ويتّحِدَ، ويُعبِّـئَ قوتَـه، ويتقـدَّمَ لتحريـر أرضـه.

وفى عـام 1144 أسـقط عمـاد الدين زنكى إمـارة "الرُّهـا" الصليبيـة التـى كـانت تفصـل بـين الشـام والعـراق.. وكـانت هـذه بدايةَ النهايـة، جـاء نـور الديـن محمـود ليوَجِّـهَ نظـره مـن دمشـق إلى القـاهرة، حيـث كـان الحُكْـمُ الفـاطمىُّ يدخـل مرحلـة الاحتضـار.

وحينمـا حـاول الوزيـر الفـاطمىُّ شـاور أن يتحـالف مـع الصليبيـين لكـى يسـتعيد كُرسـىَّ الـوزارة ويحـافظ عليـه، كـان يَفتـحُ أبـواب القـاهرة أمـام صـلاح

الدين، الذى حمل من القاهرة اللـواء العربىَّ ـ الإسلامىَّ لتحرير القدس. كانت هذه بداية التحرير. مجرد بداية فقط على طَريقٍ امتدَّ طويلاً.. ووضع نِهايةً لواحدةٍ من أهمِّ الحروب فى تاريخ البشرية بصفةٍ عامةٍ، وفى تاريخ العصور الوسطى بصفة خاصة.

وقد استغرقت الحروب الصليبية حوالى قرنين، وتَضَمنتْ عِدةَ حَملاتٍ اتّفقَ المؤرخون على حصرها فى ثمانى حَملاتٍ، مع أن عددها أكثر من هذا.

وعلى أىِّ حَالٍ، لقد نَجحَ العرب ـ المسلمون فى القضاء على المملكة الصليبية وتحرير الأرض العربية، لأنهم لم يتركوا هذه الدولة تَعيشْ يوماً واحداً فى سَلامٍ حَقيقىٍّ.. وخاضت ثمانية أجيالٍ مُتتاليةٍ معارك لم تَنقطعْ ولم تَتوقَّفْ، ولم يعرف الصليبيون ـ والكلام هنا لافنيرى الصُهيونى ـ طوال مائةٍ واثنين وتسعين عاماً يوماً واحداً من السلام الحَقيقىّ رغم ما كان هناك من اتفاقيات هُدنةٍ وإيقاف إطلاق نار (وهذه الحالة تنطبق تماماً على إسرائيل)".. ورغم ما كان هناك من ضعفٍ وخيانةٍ من جانب بعض الحكام العرب ـ المسلمين أمثال معين الدين أنر و شاور وغيرهما.. "وهؤلاء سنقرأ حكاياتهم ونَتتبَّعُ أعمالهم فى الاستعانة بالعَدوِّ، والتحالف معه ضِدَّ إخوانهم العرب المسلمين.)

كما سنقرأ ونَتتبَّعُ صَفحاتٍ أخرى.. صفحات مجد وبطولة سَجَّلَها مُناضلون عرب آمنوا ـ كصلاح الدين الأيوبى ـ بدور العمل العَربىِّ المُشترَكِ.. ونقرأ أيضا نِضالَ الجماهير العادية البَسيطةِ دِفاعاً عن أوطانها ومُقدساتِها، فقد انقلبت الجَماهيرُ ضِدَّ شاور حينما اكتشفت خيانته،

وذهبت إلى الخليفة العَباسيّ تدعوه إلى النضال يوم رأته مُتقاعساً، وكانت هى التى دَفَعتْ تكاليف الحرب التى استمرَّتْ قرنين.

والحروب الصليبية قصةٌ طويلةٌ، إنها قصة قرنين كاملين وأكثر، وهى مَليئةٌ بالأحداث والشخصيات والوقائع والمعارك.

وفى كل حدث، ووراء كل شخصية.. درس وعبرة.

ولن نستطيع هنا أن نَتتبَّعَ كل هذا، ونَرويه.

ولكن نكتفى من القِلادةِ بما يحيط بالعنق: فَنَتتبَّعُ الأحداث والوقائع والشخصيات التى تؤكّدُ لنا حقيقة أن قوة العرب فى وحدتهم.. وأن ضعفهم من انقسامهم.

هذه عِبرةُ الماضى..

وخِبرةُ الحاضر..

ودرس المستقبل.. الذى أثق أن الناشئة العربية ستعيه جيداً.. وتتعلمه، وتطبقه.. فتُحقّقُ النصر، اليوم، أو غدا، وبالتأكيد بعد غدا.. وليس غد ببَعيدٍ.

✠ ✞ ✠

في مصر ..

تقرر - آخر الأمر - مصير مملكة - بيت المقدس.

ارنست باركر

هامش تاريخي

حتى على الموت لا أخلو من الحسد ... فهل يصح أن نقول: حتى في التاريخ لا نخلوا من الخلاف؟

كان من الممكن أن يُكتب هذا الجزء دون مقدمة. ولكن عند كتابته ثارت أمامي قضية أساسية، وهي اختلاف وجهات النظر عند "تقييم" [الصحيح أن نقول: تقويم] حدثٍ تاريخي ما، خاصةً اذا كان حدثاً تاريخياً مهما مثل موقف الفاطميين من غزو الفرنجة، وبالذات عند بدايته هناك مورخون يكادون يلقون اللوم كل اللوم، على الجانب الفاطمي وهناك آخرون يرون أن الفاطميين لم يقصروا في مواجهة هذه الغزوه. ويثور الخلاف أيضاً حول نهاية الدولة الفاطمية في مصر، البعض يقول إن المصريين حزنوا لنهايتها، وآخرون يقولون أنهم فرحوا بذلك!! وينطبق الأمر نفسه بالنسبة لشخصية مثل صلاح الدين الأيوبي. فريق من المؤرخين يرون أنه كان "بطلاً نموذجياً" خلا من العيوب وفريق آخر يرى أنه لم يقم بواجبه كما يجب، ويحاول التقليل من دوره ومن أسف أن كتبنا المدرسيه درجت على تصوير صلاح الدين في صوره البطل الذي لم يرتكب خطأً ولم يأت إثماً، والذى تجرد من النوازع الشخصية، وأنه سما فوق كل الهفوات. وقد تربينا على ذلك، نشأنا ودرجنا عليه، وهذا خطأ يجب التخلص منه فالبطل، أي بطل مهما سما دوره، وارتفعت مكانته، هو في النهاية إنسان، بشر، يخطئ ويصيب، يرتكب الشرور ويعمل الخيرات، يقوى ويضعف ..

والعظماء أخطاؤهم عظيمة مثل أفعالهم. والمؤرخون المدرسيون [أى الذين يكتبون التاريخ لطلبة المدارس] يتجاهلون عادةً الأخطاء والسلبيات ويركزون على ما هو إيجابي، ليحاولوا أن ينسجوا أمام تلاميذهم "صورة وردية" يظنونها مفيدةً تربوياً لهؤلاء التلاميذ.

لذلك حاولت بقدر ما استطعت أن أضع الأحداث والأشخاص، فى إطارهم الطبيعي، وأن أترك الحدث يتحدث عن نفسه، دون أن أتخذ منه وسيلة لهجوم أو دفاع على أو عن شخص، أو نظام، كالنظام الفاطمي الذى لاشك أن له مؤيديه ومعارضيه، بالرغم من أنه أصبح فى ذمة التاريخ.

يبدو أننا سنحتاج إلى زمن نتخلص فيه من ثاراتنا التاريخية وكل ما يرجوه المرء أن يكون هذا الزمن قصيراً، حتى نستفيد من الماضى والتاريخ فى رؤية الحاضر وتشكيل المستقبل، الذى نتمناه أفضل وأجمل وأعدل ...

عبد العال الباقورى

القاهرة نقطة بداية ونهاية

القاهرة هى المدينة التى شيدها القائد جوهر الصقلى الذى فتح مصر باسم الفاطميين، ولا تزال تحمل هذا الاسم حتى اليوم، بعد أن ضمت "المدن" التى بناها المسلمون منذ فتحوا مصر، وهذه المدن هى الفسطاط التى بناها فى 641 عمرو بن العاص، وقد تم بناؤها قرب مدينة قديمة هى "حصن بابليون". وبعدها جاءت ـ على قربٍ منها ـ العسكر، ثم بنى ابن طولون "القطائع". وقد بنى عمرو الجامع الذى يحمل اسمه فى "الفسطاط" وهى مصر القديمة حالياً، كما بنى ابن طولون مسجداً رائعاً يحمل اسمه، وأسس الفاطميون "الجامع الأزهر" الذى أصبح جامعاً وجامعةً وأصبح تاريخه جزءاً من تاريخ القاهرة، التى تُعتبر ـ بذلك ـ من أقدم المدن فى العالم، وهى عاصمة مصر، والعرب، والمسلمين.

وتكاد منذ دخلها المسلمون، وبالذات منذ استُعربت على أيدى الفاطميين، أن تلخص تاريخ المنطقة العربية، كما سيتبين فى الصفحات التالية، التى تكاد تقول تاريخياً إن القاهرة كانت فى البداية، وفى النهاية فى قلب قصة حروب الفرنجة. فقد فكر الفرنجة، منذ البداية وقبل احتلال القدس، فى السير إلى القاهرة. وكانت القاهرة هى المدينة التى قررت وضع حد ليس لاعتداءات الفرنجة فحسب بل لآخر مستعمراتهم فى بلادنا.

◎ مجلس حرب

كل حدث من أحداث التاريخ يمهد ويؤثر فى الحوادث الذى تتلوه. ولذلك، فإن كثيراً من أحداث ووقائع المواجهة العربيه ــ الإسلامية ضد غزو الفرنجة، يصمه المؤرحون بأنه حدث "مهم" و 'فاصل وبدء مرحلة جديدة فى المواجهة والمقاومة. ومع ذلك، فإن العِقْد الذى يبدأ من 1153 وينتهى فى 1164 يُعتبر من أكثر فصول المواجهة أهمية. فلو جرت الأمور، فى هذا العِقْد، على غير ما جرت به وعليه، لتغير مسار ومصير الغزو الفرنجى.

فى 1153 استولى الصليبيون على مدينة عسقلان، وما أدراك ما عسقلان؟ يكفى أنها ظلت بعيدةً عن أيديهم لمدةٍ زادت على نصف قرن. وفى العام التالى، أى فى 1154، دخل نور الدين محمود مدينة دمشق. أما فى 1164 فقد بدا نور الدين والفرنجة، كلٌ من جانبه، ولكن فى وقت واحد، العمل والاستعداد والتحرك للاستيلاء على مصر. فقد رأى نور الدين أن دخوله مصر، وتوحيدها مع جبهة المقاومه، أمراً ضرورىً لتوجيه الضربة الأخيرة إلى الكيان الفرنجى. وبدورهم، فإن الفرنجة لم يكن يخفى عليهم ذلك، وكانوا يرون فيه نهايتهم.

وكانت مصر فى الحقيقة والواقع "أهم من أن تُترك خارج صراع الموت الذى نشب من حولها ... فلم يكن هناك محيص من أن يمتد اللهب إلى وادى النيل، وأن يصبح هذا الوادى مدار الصراع بين الجانبين[1] ...

ولكن ما بدأ وما جرى ابتداءً من 1164 لم يكن ابن لحظته، أو

---

(1) الدكتور حسين موس. نور الدين محمود ـ سيره مجاهد صادق ص 308

وليد ذلك العام فقط. فمنذ وقتٍ مبكرٍ، أدرك الفرنجة أهمية مصر، وضرورة الاستيلاء عليها، كي يضمنوا البقاء والاستمرار، فضلاً عن الاستقرار، للكيان الذى أقاموه بالغصب والعدوان، وإن حاولوا أن يتذرعوا زوراً وبهتاناً باسم الصليب والمسيحية. وبالنسبة لنور الدين، وعلى سبيل المثال فقط، فإنه أبدى تألماً وتحسراً حين غزا الفرنجة عسقلان دون أن يقدر على إنجادها منهم "لأن دمشق تحول بينه وبينهم" ويقول المؤرخ ابن واصل "وكان نور الدين لما نازل العدو (الفرنجة) عسقلان يتأسف، إذ لا يمكنه الوصول إليهم ودفعهم عنها، بسبب توسط دمشق بينه وبينهم".

أما اهتمام الفرنجة بشأن مصر فيعود إلى وقتٍ مبكرٍ جداً من بدء حركتهم الاستعمارية. وقبل أن يصلوا إلى أسوار القدس ويغتصبوها، وعند "الرملة" وفي أوائل يونيو سنة 1099 عقد قادة الفرنجة ما يشبه "مجلس حربٍ"، وتداولوا الأمر فيما بينهم، في قضايا عديدة، وطرح بعضهم فكرة السير إلى مصر، ومهاجمتها، وانتزاعها من أيدى الفاطميين. وبنى أصحاب الرأى هذا فكرتهم على أساس أن "مفاتيح القدس فى القاهرة"، وإذا أراد الفرنجة أن يتمتعوا بالاستقرار فى بيت المقدس، فإنه يجب عليهم أن يستولوا على القاهرة، ففى ذلك ضمان الأمن والأمان لهم مجرد طرح هذه الفكرة على بساط البحث، فى "مجلس حرب" يبين مدى اهتمام الفرنجه بمصر، لما لها من أهميةٍ ودورٍ، ومدى وعيهم بدرسِ التاريخ وبحكم الجغرافيا، وهما معاً يؤكدان أن "فلسطين دهليز مصر". ومن الخطر ان يقوم فى فلسطين كيانٌ معادٍ لمصر والمصريين. كما لم يغب عن الفرنجة فى ذلك الوقت "أن وادى النيل ودلتاه يعتبران من أشد البلاد كثافة فى السكان، فى العصور

الوسطى"[1]، كما أن مصر، فى ذلك الوقت، دون غيرها من بلاد العرب والمسلمين كانت تمتلك سلاحاً بحرياً فائق الأهمية[2].

◎ خطأ الأفضل

انتهت مناقشة الرملة بقرار السير إلى بيت المقدس، وبدأ ذلك فعلاً فى السادس من يونيو 1099، وهذه المناقشة تبين الخطأ الذى ارتكبه الوزير الأفضل بن بدر الجمالى صاحب السلطة الفعلّية فى مصر عندئذ، حينما أرسل بعثةً إلى الفرنجة، فى ربيع 1098، وهم يحاصرون إنطاكية، فى شمال الشام. عرضت هذه البعثة على الفرنجة نوعاً من التحالف، بينهم وبين الفاطميين، على أساس أن يكتفى الفرنجة بما يفتحونه من شمالى الشام، وعلى أن يكون جنوبه أى فلسطين من نصيب الفاطميين. "دارت حول ذلك المشروع مفاوضاتٌ ظلت عدة أسابيعٍ، ورجع المفاوضون الفاطميون إلى القاهرة باتفاقاتٍ وإشاراتٍ عامةٍ تقترح انتظار الحوادث قبل الوصول إلى تفاهمٍ نهائيٍ، ووصل إلى القاهرة مع أولئك المفاوضين وفدٌ صليبيٌ صغيرُ، وعددٌ كبيرٌ من الهدايا الفخمة"[3].

كان على الأفضل أن يدرك مغزى هذه المماطلة من جانب الفرنجة. ولكن، لم يكن هذا شأنه. بل كان له شأنٌ آخر، فقد استغل انشغال الفرنجة فى إنطاكية، وهزيمة قوات السلاجقة فى يونيو 1098، وتقدمت قواته

---

(1) رينسمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ2، ص 28.

(2) المصدر نفسه، ص 29.

(3) محمد مصطفى زيادة: حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة. ص3.

واستردت مدينة بيت المقدس من "الأراتقة"، وكان هذا في أغسطس من العام نفسه. فهل ظن الأفضل أنه ينفذ الجزء الخاص به من الاتفاق الذى اقترحه على الفرنجة؟ ليس مستبعداً ذلك، لأن الاتجاه إلى التحالف مع الفرنجة كان يُعبر عن ذلك الخلاف المذهبى الحاد والذى ساد العلاقات بين الخلافة الفاطمية الشيعية، خاصة بعد سيطرتها على مصر فى 969، والسلاجقة الذين نجحوا فى فرض سيطرتهم على الخلافة العباسية السُنية فى بغداد. وعلى جثة هذا الخلاف مضى الفرنجة فأحرزوا انتصاراتهم فى تلك السنوات، وهى الانتصارات التى أتاحت لهم إقامة أربعة كيانات، أهمها "مملكة بيت المقدس". كان الشام ـــ شماله وجنوبه ـــ هو أرض الخلاف والصراع بين الفاطميين والسلاجقة، كما كان لفترة أرض الصراع بين الفاطميين والبيزنطيين، الذين تقدموا على يدى الإمبراطور "نقفور فوقاس" واستولوا على شمال الشام، فى الوقت الذى دخل فيه الفاطميون مصر.

قيام وسقوط الخلافة الفاطمية فى مصر موضوعٌ واسعٌ ومتشعبٌ، ولن نهتم منه إلا بما له ارتباط مباشر بأحداث غزو الفرنجة، والصراع الذى دار على أرض الشام ومصر ضد هذا الغزو الذى كان من المؤكد أنه سيلقى مواجهةً مختلفةً لو أنه وقع والدولة الفاطمية فى أوج قوتها، وسلطانها يمتد من مصر إلى الشام، خاصةً دمشق وبيت المقدس. ولكن الغزو الفرنجى وقع والدولة الفاطمية تدخل طور الضعف والانهيار، وفى وقتٍ ضاع فيه أغلب ممتلكاتها فى بلاد الشام، خاصةً دمشق وبيت المقدس. وفى الوقت نفسه، فإن الصراع بين أمراء السلاجقة وبعضهم حال دون قيام دولةٍ كبيرةٍ موحدةٍ فى الشام، الذى غرق ـ عوضاً عن ذلك ـ فى بحر من الفوضى.

فـى ظـل هـذه الخلافـات، بـدا مـن طبـائع الأمـور أن يسـعى الوزيـر الفـاطمى إلى التحـالف مـع الفرنجـة، وأن يسـتغل هزيمـة السـلاجقة فـى إنطاكيـة فـى الزحـف إلى بيـت المقـدس. وإن كـان بعـض المصـادر يشـير إلى أن السـعى إلى التحـالف جـاء مـن جـانب الفرنجة. ففـى وقـتٍ مبكـرٍ مـن الحملـة الأولى، وحينمـا دخـل الفرنجة "نيقيـة" بآسـيا الصغرى، وهى عاصمـة السـلطان السـلجوقى قلـج أرسـلان أرسـلوا سـفارةً إلى مصـر. وتـم ذلـك مـن جـانب الفرنجـة بنـاءً علـى نصيحـةٍ مـن الإمـبراطور البـيزنطى ألكسـيوس كومنـين، الـذى دعـاهم ــ عنـد عبورهـم أراضـى إمبراطوريتـه ــ إلى أن يتقـاربوا مـع حكـام مصـر، الذيـن كـان على اتصـالٍ معهـم. كمـا أن الفرنجـة حـاولوا أن يلعبـوا لعبـة "دق الأسـافين" بـين حكـام الإمـارات والمدن العربيـة ــ الإسـلامية، فحـاولوا أن يوحـوا لكـل واحـدٍ منهـم أنـه ليـس هـو، ولا أرضـه، هدفهـم! وانطلـى ذلـك علـى بعـض هـؤلاء الحكـام الغـافلين، الذيـن لـم يدركـوا جليـة الأمـر إلا حـين وجـدوا الفرنجـة يدقـون أبـواب مُدنهـم، ويطردونهـم منهـا، أو يفرضـون السـيطرة عليهـم، فلـم يجـد هؤلاء بداً مـن قبـول ذلـك، وهـم صَـاغرون.

◎ رسالة سورية

وعلـى الرغـم مـن أن قـوات الأفضـل اسـتولت علـى بيـت المقـدس وطـردت حاميتهـا الأرتقيـة. إلا أنـه يبـدو ــ فـى موقفـه مـن الفرنجـة ــ حـائراً مـتردداً، يصـدق عليـه تعبـير أنـه يقـدم رِجْـلاً ويؤخـر أخـرى. أحيانـاً يبـدو منهمكـاً فى الاسـتعداد لمواجهـة الفرنجـة، وأحيانـاً يبـدو ــ مـن أقوالـه المنسـوبة إليـه ــ أنـه لا يصـدق أنهـم سيسـيرون إلى انـتزاع بيـت المقـدس منـه. تلـك الحـال مـن الـتردد والحـيرة ليسـت مـن صفـات الأفضـل، كمـا صـوره المؤرخـون المعـاصرون لـه.

ولكن يبدو أن حيرته ليست مرتبطةً بتصرفاته كشخصٍ، بقدر تعبيرها عن حال دولةٍ كانت تتحول من قوةٍ إلى ضعفٍ، ومن ازدهارٍ إلى تدهورٍ، وهو ما آلت إليه الأمورُ في مصرَ، خاصةً بعد رحيل الأفضل.

الأفضل

الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى، وهو من أصلٍ أرمنيٍ، فقد كان والده مملوكاً أرمنياً لجمال الدولة بن عمار، لذلك عرف بالجمالى. تولى عدداً من المناصب، حتى وصل إلى حاكم الشام ولكن الخليفة الفاطمى المنتصر بالله (معد بن تميم 1035 ــ 1094) استنجد به للقضاء على فتنِ بعضِ الطوائفِ من الجنودِ. أدخل الأفضلُ عنصراً جديداً في الجيش الفاطمى هو الأرمن وخلف أباه في الوزارة، وعلى يديه بدأت المرحلة الثانية من مرحلتي الدولة الفاطمية، مرحلة سيطرة الوزراء على الخلفاء.

على أيةِ حالٍ، لقد أرسل الأفضلُ مع البعثة التي أوفدها الفرنجةُ اقتراحاً بأن يتوقفوا عن احتلال بيت المقدس، وفي مقابل ذلك فإنه سيفتح أبواب المدينة أمام الحُجَّاجَ من الغرب. ولم يلق هذا العرضُ قبولَ الفرنجةِ. واتجهوا إلى بيت المقدس، وحاصروه. وقبل أن يصلوا إليه تلقوا عرضاً ثالثاً

من الأفضل، وهم عند عكا، ولكنهم لم يكلفوا أنفسهم مئونة الردِ عليه. وفي الوقتِ نفسه، لم تتوقف الاتصالات بين الأفضل والإمبراطور البيزنطي، فقد عقدا اتفاقاً سرياً ضد الفرنجة، الذين وقعت في أيديهم رسالةٌ متبادلةٌ بين الرجلين، في هذا الشأن. ومن ثم، ليس صحيحاً إذن ما قيل من أن الفاطميين هم الذين دَعَوا الفرنجة إلى بلاد الشام، كي يساعدوهم ضد السلاجقة. ولكن الصحيح هو أن الحكم الفاطمي في مصر، أو أن الرجل القوي في مصر وقتئذٍ، أي الأفضل الجمالي، لم يفطن إلى حقيقة الخطر الفرنجي، وتعامل معه على أساس مبدأ: عدو عدوي صديقي، وعدوه الأساسي أو الرئيسي عندئذ هو السلاجقة، ولكنه شيئا فشيئا سيكتشف خطأه، ويحاول علاجه وبأسلحةٍ مختلفةٍ، ولكن بعد فوات الأوان. فمن الواضح أن مصر ـ بكل قواها ـ لم تكن تستطيع في ذلك الوقت صد خطر الفرنجة. لدرجة أن مؤرخاً كبيراً مثل ابن تغري بردي يتعجب لعدم مشاركة الفاطميين في الدفاع عن بيت المقدس، ويقول: "ولم ينهض الأفضل بإخراج عساكر مصر. وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال". ولكن صاحب النجومِ الزاهرةِ في ملوكِ مصر والقاهرة الذي يتعجب من أن "عساكر مصر لم تحضر"، لا يلبث أن يضيف: "أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي صاحب أمر مصر لما بلغه أن الفرنج ضايقوا بيت المقدس خرج في عشرين ألفاً من عساكر مصر وجدَّ في السيرِ، فوصل إلى القدسِ يوم ثاني فتحه ولم يعلم بذلك، فقصده الفرنج وقاتلوه .." [1]، ومن الواضح أن ابن تغري بردي ليس دقيقاً في حديثه عن وصولِ الأفضل وقواتهِ إلى المقدس في ثاني يوم فتحه"، بل الصحيح أنه

(1) الجزء الخامس، ص149.

وصل إلى عسقلان فى الرابع من أغسطس، وأرسل منها رسولاً إلى الفرنجة "يوبخهم على ما فعلوه". وظل الأفضل فى عسقلان، وهى مفتاح فلسطين ومدخل مصر فى وقتٍ واحدٍ، فى انتظارِ قواتِ الأسطولِ الذى كان يحظى بالمقدرة والتفوق، فى البحر المتوسط. وبادر الفرنجةُ بالهجومِ وباغتوا القوات الفاطميةَ، وألحقوا بها هزيمةً، اضطر معها الأفضل إلى الفرار من عسقلان بحراً، وكان فراره رمزاً إلى ما وصلت إليه أوضاعُ مصر من تراجعٍ، وهى أوضاعُ لن يغيرَ من حقيقتِها إقدامُ قواتها على القيامِ بعملياتٍ متواليةٍ ضد الفرنجةِ، ولكنها جميعاً لم تستطع حتى منتصف القرن الثانى عشر أن تزحزحهم شبراً من الأرض التى احتلوها، بل حدث العكسُ. وألحق ذلك ضرراً بمكانة مصر. لقد حاول الأفضل الانتقام من الهزيمة التى لحقت به، وسعى لاسترداد بيت المقدس، ولكن جهوده كلها كانت مجرد محاولاتٍ، لم يكتب لأيٍ منها النجاح.

✠ ✣ ✠

حملات فاشلة

◎ تساقط الموانى

بعدَ النصرِ الذى حققه الفرنجة فى عسقلان، انصرف جُلّ اهتمامهم إلى الاستيلاء على المدن الساحلية التى كانت تخضع للحكم الفاطمى. والهدفُ من وراءِ ذلك هو تأمينُ المواصلات البحرية بـ "الوطنِ الأم" من ناحيةٍ، وإضعافُ دورِ الأسطولِ الفاطمى، وكان ــ حتى ذلك الوقت ــ قوةً يُحسب حسابها، إذ اهتم الفاطميون اهتماماً فائقاً بتكوين قوةٍ بحريةٍ، وأنشأوا من أجل ذلك مراكز خاصة لبناءِ السفنِ الحربيةِ. وتولى الإشرافَ على الأسطولِ الفاطمى عشرةٌ من القادة العسكريين، وكان يُختارُ من بينهم "أمير الأسطول" وحظِىَ العاملون فى الأسطول بتقديرٍ خاصٍ، فكانوا يُسمَّون "المجاهدين فى سبيل الله والغزاة فى أعداء الله"، حسب رواية المقريزى. ولذلك سمى ديوان الأسطول "ديوان الجهاد". وكان الخليفة الفاطمى يشارك بنفسه فى وداع سفن الأسطول حين تخرج لمهمةٍ من المهام القتالية، كما كان يحضر الاحتفال بعودته ظافراً.

ولم تكن قدرات الأسطول الفاطمى لتغيب عن تفكير الفرنجة وتدبيرهم العسكرى. لذلك، استغلوا فترة المفاجأة التى تركت العرب ــ المسلمين فى شبه ذهول بعد سقوط القدس، استغلوا هذه الفترة فى انتزاع أكبر عددٍ ممكنٍ من المدن الساحلية. واستعان الفرنجة فى ذلك بالقوى البحرية الإيطالية التى كانت تنقل الحجاج، فقد أدرك أصحاب هذه السفن

أن احتلال المدن الساحلية "يفتح أسواقاً جديدةً وموانئ حرةً لبضائعهم". ولم يتردد الفرنجة في منح الامتيازات المالية والتجارية لهؤلاء، من أصحاب السفن والتجار. وما من مدينة من مدن الشام الساحلية نجح الفرنجة في انتزاعها، إلا وكانت تنتظر النجدة من الفاطميين، وقد استغاث حكام وسكان هذه المدن بهم، وغالباً لم تكن أصوات الاستغاثة تذهب سدىً، بل كان الفاطميون يسمعونها، ويحاولون الاستجابة لها، ولكن استجاباتهم كانت في أغلب الحالات، أن لم يكن في جميعها، إما ضعيفةً لا تفي بالغرض أو متأخرةً، تصل بعد فوات الأوان. وما من مرةٍ أدى فيها الأسطول الفاطمي الدور الذى كان منوطاً به أو معلقاً على كواهل رجاله وسواعدهم كاملاً. هكذا سقطت أرسوف وقيسارية وعكا، ثم تساقطت ـ فيما بعد ـ طرابلس وحلب وبيروت وصيدا وصور. وكان سقوط كل منها فصلاً دامياً.

وحين سقطت هذه المدن الموانى في أيدى الفرنجة دانت لهم السيادة على شاطئ فلسطين، بينما فقد الأسطول الفاطمي قواعده البحرية المهمة.

وكانت الانتصارات الجديدة التى أحرزها الفرنجة لا تدل على قوتهم العددية عسكرياً، بل كانت تعكس اضطراب الوضع الفاطمي. فقد عجزت القوى الفاطمية عن تنسيق الحركة بين جنود البر وجنود البحر. وكان هذا العجز أوضح ما يكون في الحملات الثلاث التى وجهها الفاطميون إلى الرملة، وهى المكان نفسه الذى ولدت فيه لدى الفرنجة فكرة أن "مفاتيح القدس في القاهرة". وقد جرت معارك الرملة الثلاث في الأعوام 1101، 1102، 1105 على التوالى. مما يدل على أن الفاطميين لم يقفوا ساكنين بالكامل في مواجهة سقوط بيت المقدس، ولكنهم كانوا أعجز

من تحريره، مع إنهم ـ أحياناً ـ كانوا قاب قوسين أو أدنى من ذلك! لقد ولى الزمن الذى كان يستطيع فيه الجيش الفاطمى صنع الانتصارات، وكان عجزه دليلاً ومؤشراً على أن الدولة الفاطمية بدأت مرحلةَ الانحدارِ، والسقوط. ويتأكد لنا صدق هذا الحكم حين نقف بقدرٍ من التفصيل على كل حملةٍ من الحملات الثلاث.

◎ موقعة الرملة الأولى سنة 1101

سعى الأفضل إلى الانتقام من الهزيمة التى ألحقتها به قوات الفرنجة فى عسقلان، فأمر فى ربيع العام 1101 بتجهيز حملةٍ كبيرةٍ تتجه إلى فلسطين. واختار لقيادتها سعد الله القواسى. تجمعت قوات هذه الحملة فى عسقلان، التى أصبحت مركز الانطلاق لجميع الحملات المصرية ضد الفرنجة، فى تلك الفترة. إعداد هذه الحملة استغرق وقتاً طويلاً، امتد شهوراً، استفاد منها الفرنجة فى الإعداد والاستعداد ـــ بحسن التخطيط والتدبير ـــ لمواجهتها. انطلقت الحملة فى أوائل سبتمبر من ذلك العام قاصدةً الرملة، حيث تستطيع من هذا المكان أن تكون مصدر تهديدٍ ليافا والقدس.

التقى الجيشان، جيشُ الفاطميين وجيشُ الفرنجة، فى السهل الواقع جنوب غربى الرملة. كانت قواتُ الفرنجة أصغرَ عدداً وأقل عدةً من قوات الفاطميين الذين يبدو أنهم كانوا يفتقدون الحماس والحمية أو ما نسميه "إرادة القتال"، لقد تصدعت صفوفهم بسرعة، وحقق الفرنجة النصر، وألحقوا بالقوات الفاطمية خسائرَ كبيرةً، واستولوا منها على غنائمٍ كثيرةٍ كذلك، ثم طاردوا من تبقى منهم حتى عسقلان. وكان بين القتلى فى هذه الموقعة سعد الله القواسى قائد الحملة الذى قاتل ببسالة، ولكن الشجاعة

الفردية لـم تكـن تستطيع وحدها حسـم المعركـة.

ولكـن النصـر لـم يتحقـق للفرنجة فى هـذه الموقعة من أول جولـة. بـل إن الحشـود المصرية كـادت تحقـقُ النصـرَ، بـل هـى حققتـه فعـلاً، لدرجـة أنـه تـراءى للفرنجة أن كـل شئ قـد ضـاع. ولكـن فجـأةً انقلبـت الأمـورُ، حين تقـدم بلدويـن وضغـط على قلب الجيش المصرى، واستطاع أن يزحزحه عـن موقعـه، فلما تراجـع تحـت المفاجـأةِ، بـدأت ميمنـةُ الجيـش (أى جناحـه الأيمـن) تُولّـى الأدبـار. لقـد انفتحـت ثغـرة فـى بنيـان القـوات، واستغلها الفرنجـة، وطـاردوا جيش مصر إلى عسقلان. وفى هـذا الوقـت، لـم تكـن أيـة قـوةٍ عربيـةٍ ـ إسلاميةٍ أخـرى تعبـأ بمـا يجـرى، وتحـاول أن تسـاعد الفـاطميين، أو حتـى تستغل فـراغ مملكة بيـت المقـدس من مقاتليها فتضغط عليها. لـم يكـن شئ مـن ذلـك يحـدث فى تلك المرحلـة مـن مراحـل الغـزو الفرنجى.

◎ موقعة الرملـة الثانيـة سـنة 1102

كيـف تلقـت القـاهرةُ نبـأ الهزيمـةِ الجديـدةِ فـى الرملـةِ، وعـودةَ قواتِهـا منكسـرةً إلى عسـقلان؟

يبـدو أن هـذا لـم يخطـر ببـال المؤرخـين تسـجيله. فقـد انصرفـوا إلى الاهتـمام بـأمور أخـرى، بعضهـم يكـاد يبـدى الشـماتة فـى انكسـار القـوات التـى يصفهـا بـ "الفاطميـة"، وبعضهـم يحـاول أن يـبرهن علـى أن الخلافـة الفاطميـة ـ حتى وهـى فـى مرحلـة الانحـدار ـ لـم تـأل جهـداً فـى مقاومـة الفرنجة. ويقولـون أن دليلهـم علـى ذلـك أن الأفضـل انصـرف بعـد المعركـة، أو بعـد الهزيمـة إلى تجهيز جيشٍ كبيرٍ لخوض معركـةٍ جديـدةٍ، وربمـا كـادوا يقولـون إن الهزائـم فـى بيت المقـدس، وفـى عسـقلان، وفـى الرملـة كـانت خسـائر لمعـارك، ولـم تكـن

خسارةَ لحرب.

ويبدو أن الأفضل بحنكته السياسية كان يرى ذلك. فطوال الفترة منذ غزا الفرنجة بيت المقدس لم يتوقف عن القتال أو الاستعداد له. وبعد حوالى ثمانية شهور فقط من الهزيمة، فى الرملة، كان الأفضل يجمع فى عسقلان حوالى عشرين ألف مقاتل، تولى قيادتهم شرف المعالى ابن الأفضل نفسه. وتوجهت القوات من جديد إلى الرملة. ولم يستطع بلدوين أن يُقدر عدد الجيش الفاطمى تقديراً صحيحاً.

قد تكون رواية المؤرخ الكبير ستيفن رنسيمان لهذه المعركة خيرَ شهادةٍ عما جرى؛ ففى "17 مايو سنة 1102 خرج من بيت المقدس، الملك بلدوين فى نحو خمسمائة فارس، وغمرهم الفرح بركوبهم فلم يحفلوا بالنظام، فلما بلغوا السهل (سهل الرملة) رأوا أمامهم فجأة الجيش المصرى الضخم، أدرك بلدوين ما وقع فيه من الخطأ؛ غير أن الرجوع صار متعذراً. إذ شهدهم الجيش المصرى فعلاً، وتوجه الخيالة المصريون الخفاف لقطع طريق ارتدادهم، فلم يسعهم إلا المبادرة بشن الهجوم ... وإذ اعتقد المصريون بأن هذا الهجوم لم يقم به إلا مقدمة جيشٍ ضخمٍ، تخلوا عن مواقعهم حتى لا يتعرضوا للصدام، غير أنه لما تبين لهم أنه لم تلحق قوةٌ أخرى بالفرنج، احتشدوا وأطبقوا على الفرنج؛ فانهارت صفوف جيش بلدوين ... ولقى مصرعه على ساحة المعركة عددٌ كبيرٌ من الفرسان ... أما الملك بلدوين وكبار رفاقه فاتخذوا طريقهم إلى حصن الرملة الصغير، حيثُ حاصرهم الجيش المصرى"[1].

(1) الجزء الثانى، ص126.

ولم يكن حصن الرملة بمانعٍ أو ساترٍ أو حامٍ لبلدوين، الذى خاف عاقبة الأمور، فاضطر إلى الهرب منه بليل. وفى صباح اليوم التالى دارت رحى المعركة، ودارت الدائرةُ على الفرنجةِ، فمن نجا منهم من الموت وقع فى الأسر، لكن عدداً منهم انسحب مسرعاً إلى يافا، ناقلاً خبر الهزيمة الثقيلة، حتى فكر نفرٌ من الفرنجة فى الانسحاب عبر البحر.

وبالفعل تمكن المصريون من تحرير الرملة فى 19 مايو سنة 1102، ثم حاصروا يافا التى ابتعد عنها بلدوين وهو فى فراره، فاتجه إلى أرسوف. وبعث ظهوره الفرحةَ فى نفوس رجاله، الذين كانوا قد تسامعوا وتناقلوا نبأ موته. وبسرعة، استجمع بلدوين فلول قواته، واستطاع التسلل إلى يافا بحراً، فى وقتٍ وصلت فيه إليها مائتا سفينة حاملةً عدداً كبيراً من المقاتلين والحجاج. وتمكنت هذه السفن من اختراق الحصار البحرى الفاطمى. ومن يافا خرج بلدوين على رأس قواته، وباغت القوات الفاطمية بهجومٍ ألحق بها الهزيمة، ففرت عائدةً مرةً أخرى إلى عسقلان.

تلقى الأفضل نبأ هزيمة ابنه وقواته فسارع بإرسال حملتين. كانت إحداهما بحرية والثانية برية، ولكنهما فشلتا فى التنسيق فيما بينهما، وانتهى الأمر بهما إلى عدم الخروج من عسقلان.

والنتيجة الواضحة من هذه الموقعة هى أن الخطط العسكرية الفاطمية كانت تفتقد وتفتقر إلى الإحكام، وإلى استخدام كل الأسلحة فى وقت واحد. ولعل النصر الذى تم إحرازه فى البداية كان وليد التنسيق المحكم بين حركة القوات البرية والبحرية، ولما غاب هذا التنسيق حلت الهزيمة بالقوات الفاطمية.

وفي هذه الموقعة، هناك ظاهرة جديرة بالالتفات، ففي وسط هذه الأحداث، ولما وجد الأفضل أن الدائرة دارت مرتين على قواته، طلب من شمس الملوك دقاق صاحب دمشق مساعدته ضد الفرنجة، ولكن دقاق "اعتذر عن ذلك ولم يحضر". بدت الاستجابة لمثل هذا الطلب مبكرة عن موعدها، وكان عليها أن تنتظر أكثر من ستين عاماً، حتى يظهر رجل في وزن وقوة نور الدين يدرك ما لم يدركه دقاق، بل ما كان يعجز دقاق ـ وأمثاله ـ عن إدراكه.

موقعتا الرملة الأولى والثانية نبهتا الفرنجة إلى نقاط القوة ونقاط الضعف في الجيش الفاطمي، كما أبرزنا لهم مدى أهمية السيطرة على بقية موانئ الشام، لما لها من أهمية استراتيجية بالنسبة لهم. و"من الملاحظ في تاريخ مملكة بيت المقدس الصليبية أنها ظلت دائماً تشعر بحاجة ملحة إلى ربط نفسها بالبحر ربطاً قوياً، وإلى تأمين اتصالها بالشاطئ تأميناً ثابتاً، لأن البحر بالنسبة لها كان بمثابة الرئة التي تتنفس بها تلك المملكة والشريان الذى ربطها بقلب العالم الغربي، وتتزود عن طريقه بما تحتاج إليه من إمدادات بشرية ومادية"[1].

لذلك، وفي ربيع سنة 1103 حاصر بلدوين مدينة عكا، وهي من أكثر موانئ الشام ـ عبر التاريخ ـ حصانة وحين تلقى الفاطميون نبأ هذا الحصار، سارعوا بإرسال النجدات إلى عكا، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار والانسحاب، ولكنه انسحب وهو يُضمر في نفسه العودة إليها مرة أخرى. وعاد إلى ذلك فعلاً، في مارس من السنة التالية، أي سنة 1104، حينما وصل

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية، الجزء الأول، ص301.

إلى ميناء اللاذقية عددٌ كبيرٌ من سفن جنْوا الإيطالية، وعلى ظهرها عددٌ كبيرٌ من التجار والجنود والحجاج. تمت الاستعانة بهذه السفن في القيام بهجوم فاشلٍ على طرابلس، ثم في محاصرة جبيل التي استسلمت. وفي مايو استخدم بلدوين هذا الأسطول في الهجوم على عكا. وجرت واحدة من المعارك الكبيرة في ذلك الوقت. فقد استبسل المدافعون عن عكا بقيادة حاكمها الفاطمي زهر الدولة الجيوشي الذي "قاتل حتى عجز". واضطر إلى الاستسلام، فاستولى الفرنجة على أهم قاعدةٍ للأسطول الفاطمي في الشام، وكانت هذه خسارة كبيرة، لم يستطع الأسطول الفاطمي تعويضها. كان الفاطميون في ذلك الوقت أعجز من أن يدافعوا عن امتداد مصر في الشام، ولا نستطيع أن ندرك ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الفرنجة في ذلك الوقت هاجموا الديار المصرية نفسها. إذا كان مثل هذا الهجوم لم يدر في خلد الفرنجة، فإن مصر كهدف وكمفتاح لبيت المقدس لن تلبث أن تنتصب أمامهم. وحين يتقدمون لذلك يكون الوقت قد فات، وحين يقدمون على دخول القاهرة تكون موازين القوى قد تغيرت.

◎ معركة الرملة الثالثة في سنة 1105

شهد العام 1105 آخر محاولة كبرى في تلك الفترة قام بها الفاطميون ضد الفرنجة. إذ شهد موقعة أخرى، هي موقعة الرملة الثالثة، التي قاد الجيش الفاطمي فيها ابن آخر من أبناء الأفضل هو سناء الملك حسين، وكان عدد قواته يزيد على خمسة آلاف. كانت الرملة مكان الموقعة لأنها كانت تمثل منطقة حاكمة وحاسمة بالنسبة لبيت المقدس في ذلك الوقت. ولم يكن الفرنجة عندئذٍ بقادرين على الخروج أبعد من ذلك لملاقاة الجيش

الفاطمى، الذى كان يهاجمهم بالفعل فى عقر دارهم، بحيث لو أنه تمكن من الانتصار مرة واحدة من المرات الثلاث التى خاض فيها المعركة عند الرملة، لكان من السهل له وعليه أن يدق أبواب بيت المقدس، ولعله يومئذٍ لم يكن يستعصى عليه دخوله، وقد رأينا مشهداً قريباً من ذلك فى الموقعة الماضية، أى موقعة الرملة الثانية.

تفصل ثلاث سنوات تقريباً بين الموقعتين، موقعة الرملة الثانية وموقعة الرملة الثالثة، بينما يفصل عام واحد بين الموقعتين الأولى والثانية. وهذا أمر لا يخلو من دلالة، كما أن عدد قوات الجيش الفاطمى فى الموقعة الثانية كان حوالى عشرين ألفا، هبط فى الموقعة الثالثة إلى حوالى خمسة آلاف. وهذه جميعاً مؤشرات على تآكل وضعف الدولة التى كانت تعد هذا الجيش وتجهزه، كان هذا الضعف يتزايد أكثر فأكثر عاماً بعد عام. لم تكن نتيجة هذه الموقعة لتختلف عن نتيجتى سابقتيها، وإن كانت الخسائر فيها أكبر فى الجانبين، الفاطمى والفرنجى، حيث "لم تظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، فقتل من المسلمين ألف ومائتان ومن الفرنج مثلهم" حسب رواية ابن الأثير.

وبالرغم من الهزيمة التى لحقت بالجيش الفاطمى، للمرة الثالثة، فإن موقعة الرملة الثالثة شهدت خطوة إيجابية. لقد رأينا فى الموقعة الماضية صاحب دمشق يعتذر عن عدم الاستجابة لطلب الأفضل مساعدته ضد الفرنجة. أما فى هذه المرة، فإن طغتكين، الذى آلت إليه مقاليد السلطة فى دمشق، استجاب للأفضل، وأرسل إليه أحد رجاله ومعه ألف وثلاثمائة فارس، صحيح أن القوات المشتركة لحقت بها الهزيمة، ولكن كانت هذه أول

مرة يشترك فيها العرب ـ المسلمون من مصر والشام فى القتال ضد العدو. وهذه أيضاً بداية سيكون لها شأنها فيما بعد .. بعد ما يزيد على نصف قرن من الزمان.

◎ مناوشات مستمرة ولكن

لقد كانت الحملة الثالثة، وموقعة الرملة الثالثة أيضاً، آخر المحاولات الفاطمية الكبيرة ضد الفرنجة، منذ استيلائهم على بيت المقدس، حتى ذلك العام، أى العام 1105. أما بعده، فقد أصاب الدولة الفاطمية الوهن، وبدأ شأنها يتراجع عسكرياً إلى حدٍ بعيدٍ. لكن هذا التراجع لم يكن يعنى توقف الغارات الفاطمية، بين عامٍ وآخر، ضد المواقع الفرنجية. وبعض هذه الغارات كاد يكون له شأنٌ كبيرٌ، مثل تلك التى وقعت فى 1110، حيث يتفق المؤرخون على أن "الفاطميون وصلوا إلى أسوار بيت المقدس". بل إن غارة فى 1106 كادت تحقق شيئاً قريباً من ذلك، ويقول رنسيمان إنه فى أكتوبر من تلك السنة "قام بضعة ألوف من الفرسان المصريين بهجوم مفاجئ"، وأوشك هذا الهجوم أن يحقق من النجاح "ما فشلت فيه جيوش تفوقها ضخامة وكثافة"، حسب تعبير رنسيمان أيضاً[1].

ودلالة ذلك الساطعة أن مصر، وعلى الرغم من ضعف الفاطميين، ظلت "مصدر خطر على الفرنج"، إذا كان يؤرقها أن يقوم فى فلسطين كيانٌ معادٍ لها، يتربص بها من ناحية، ويقطع اتصالها من ناحية أخرى مع بقية الأراضى العربية والإسلامية شرقيها.

كانت مصر، الشعب والأرض والدولة، تستشعر الخطر الفرنجى،

---

(1) الجزء الثانى، ص147.

وتتوق إلى الخلاص منه. وكانت مصر السلطة تتمنى ذلك أيضاً، لكن صراع المصالح، والأهواء الشخصية يطغى أحيانا على مصالح الأوطان والشعوب، التى تظل تنتظر اللحظة المناسبة للتخلص من الخطر. كان أهل الحكم يتصارعون، وكانت مصر تنتظر؛ بل تغلى غيظاً، ولم يكن الحكام المتصارعون يستطيعون تجاهل هذا الغيظ الشعبى، مهما كان كظيماً، ولذلك لم يكف الفاطميون عن مناوشة الفرنجة، وفيما بعد 1110، وفى السنوات العشر التالية، أى حتى 1120 تقريباً وقعت وتكررت غارات فاطمية، صحيح أنها لم تكن فى مستوى سابقاتها قوةً وعدداً، لكنها استطاعت مع ذلك — أن تكون مصدر إزعاج للفرنجة، مما فتح عيونهم أكثر فأكثر على "الخطر المصرى". وكان أخشى ما يخشاه الفرنجة أن يجدوا أنفسهم بين نارين: نار شامية فى الشمال، ونار مصرية فى الجنوب. ومن هنا كان من أسس استراتيجية بلدوين أن يقطع طريق الوصل والتواصل بين وادى النيل وبلاد الشام.

وقبل أن يركز جهوده على قطع طريق التواصل البرى الشامى والمصرى، ركز بلدوين أعماله على تصفية بقايا النفوذ الفاطمى على الساحل الشامى. وفى عام 1110، الذى شهد غارة فاطمية مهمة ضد الفرنجة، ولكنها باءت بالفشل، فى هذا العام نجح فى الاستيلاء فى 4 ديسمبر على صيدا، ولم يكن الاستيلاء عليها عملية سهلة، إذ كان الأسطول الفاطمى لا يزال قادراً على أن يقدم يدا العون لمدينةٍ حصينةٍ ومنيعةٍ مثل صيدا. ولكن المعاونة البحرية التى لقيها بلدوين من أسطول البنادقة (أى أصل مدينة البندقية الإيطالية) فرضت على أهل المدينة الاستسلام.

والنجاح الذى حققه بلدوين فى صيدا عجز عن تحقيق مثله فى صور وعسقلان، وكانتا آخر ما بقى فى أيدى الفاطميين من الساحل الشامى. ويرجع فشل بلدوين هنا إلى أنه لم يلق مساعدة بحرية، لا من البنادقة ولا من البيزنطيين. وعند حصار مدينة صور، لم يجد حاكمها عز الملك مفراً فى ١١١١ من طلب النجدة من طغتكين حاكم دمشق وذلك ليأسه ـ يأس عز الملك ـ من الأفضل ـ ولبى طغتكين النداء، وأرسل إلى عز الملك قوة لتنجده، ثم خف طغتكين بنفسه إلى صور، وكان، دوره سبباً فى أن يرفع بلدوين الحصار عن المدينة، ويتراجع إلى عكا. وشرع أهل صور كما حكى ابن القلانسى "فى ترميم ما شعثه الإفرنج من سورها، وأعادوا الخنادق إلى حالها، ورسمها بعد ضمها، وحصنوا البلد، وتفرق من كان فيه من الرجالة".

أما عسقلان فكان لها شأن آخر مع بلدوين، الذى بادر إلى السير إليها بعد استيلائه على صيدا. وكان حاكم عسقلان ويدعى شمس الخلافة يختلف كبير اختلاف عن عز الملك حاكم صور. فقد كان شمس "أرغب فى التجارة من المحاربة". وكان قد سئم القتال. واتجه إلى مهادنة بلدوين مقابل أموال يدفعها له. وحاول جباية هذه الأموال من سكان صور، التى كانت تحت ولايته. ولما علم الأفضل بتصرف شمس الخلافة هذا، بعث إليه بقوات أمرها بعزله. ولما ارتاب حاكم عسقلان فى هدفهم، أغلق دونهم أبواب المدينة، ومنعهم من دخولها، وطرد من العساكر كل من شك فى ولائه للفاطميين، ووضع فى أماكنهم جنوداً من المرتزقة. وأقدم شمس الخلافة على ما أقدم عليه أنر فى دمشق من قبل، وتوجه مثله إلى بيت المقدس، ووضع مدينته تحت حماية بلدوين. وعاد إلى عسقلان ومعه حامية فرنجية بلغت

ثلاثمائة مقاتل. أثارت هذه الخطوة، التى أقدم عليها شمس الخلافة، غضب أهل عسقلان. ولما تلقوا دعماً من مصر، رتبوا انقلاباً على حاكمهم، الذى قُتل، كما قُتل معه عدد كبير من الفرنجة الذين لم يستطع بلدوين إنقاذهم، واستعادت عسقلان مكانتها، وظلت صامدة لمدة أربعة عقود أخرى من السنين، ظلت خلالها مبعث متاعب للفرنجة.

◎ الحصون الثلاثة

نجح بلدوين إلى حد كبير فى تأمين مملكة بيت المقدس بحرياً، وبعد أن عجز عن الاستيلاء على صور وعسقلان، رغب فى تأمين مملكته من الناحية الجنوبية. وتمكن من فرض سيطرته على المنطقة التى تمتد من جنوب البحر الميت إلى ميناء إيلات على خليج العقبة. واستطاع تأكيد هذه السيطرة عن طريق بناء قلعة حصينة هى "حصن الشوبك" فى عام 1115. وقد ملأ بلدوين هذا الحصن بالمقاتلين، الذين كان عليهم أن يراقبوا "مفترق" و "ملتقى" الطرق بين القاهرة ودمشق وبيت المقدس.

وفى السنة التالية، أى فى 1116، اندفع بلدوين نحو العقبة، وهى ثغر تجارى مهم منذ قديم "يتحكم فى الطرق البرية بين مصر والحجاز". وبنى فى هذا المكان "حصن إيله" وأقام فيه قوة عسكرية "تتولى حراسة هذا المنفذ الحيوى أو بوابة الشام إلى اليمن والهند، بأمل الاستيلاء ولو جزئياً على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندى". لم يكتف بلدوين بذلك، فبنى قلعة حصينة أخرى فى جزيرة فرعون، وملأها أيضاً بالمقاتلين. وبهذه الحصون أصبح الفرنجة يقبضون على مفاتيح العبور بين مصر والشام والحجاز، وأصبحت التجارة التى تعبر هذه المنطقة تحت رحمتهم. وفيما بعد سيكمل الملك فولك

(1131 ـ 1144) سلسلة الحصون فى هذه المنطقة، ببناء حصن الكرك.

كان هدف بلدوين الأساسى من وراء هذه الحصون هو عزل مصر، حتى تسهل له محاصرتها، ومهاجمتها، فى اللحظة التى يراها مواتية. ولذلك، فإنه حين اتجه إلى إيلات اصطحب معه خبراء ومرشدين، استعان بهم فى السير إلى قرب "دير سانت كاترين". وظن أن رهبان الدير سيقفون إلى جانبه، فأرسل إليهم أربعين من فرسانه طالباً منهم المعلومات التى تفيده فى الزحف إلى داخل الأراضى المصرية. امتنع الرهبان عن تقديم أية مساعدة، وعاد الفرسان خائبين، ولكن بدواً من سيناء تصدوا لهم وأبادوهم. واضطر ملك بيت المقدس إلى العودة خائباً من سيناء. ولكنه عاد فى سنة 1118 يجرب حظه من جديد، عبر الطريق الشمالى لسيناء من ناحية رفح والعريش. وبسرعة وخفة فى الحركة، تقدم بلدوين حتى وصل إلى "الفرما" شرق بور فؤاد الحالية. أصاب الذعر حاميتها، فولت هاربة، وأشعل هو ناراً فى قلعة الفرما. وواصل تقدمه حتى "تنيس" شرق بحيرة المنزلة. وكما أشعل النار فى قلعة الفرما أشعلها فى قلعة تنيس.

حسب بلدوين أن المنطقة التى اجتازها قد دانت له، فتوقف طويلاً فى "تنيس". ولكنه ما لبث أن تراجع، مع أنه كان يفكر فى مواصلة زحفه حتى المغرب. فلماذا تراجع؟ لقد زحف بلدوين فى قوة صغيرة، قوامها ستمائة فارس وراجل، واصلوا زحفهم حتى "تنيس" لأنهم لم يواجهوا قوة تدفعهم، وتدافع عن أرض مصر، ومن المرجح أن مثل هذه القوة ظهرت فى المنطقة القريبة من تنيس وأن ظهورها هو الذى دفع بلدوين وقواته إلى الانسحاب. لكن المؤرخين عادة يقفون عند رواية طريفة، وهى أن بلدوين

أعجبته أسماك المنطقة التى وصل إليها، وأكل منها كثيراً، حتى أصيب بالتخمة، التى أدت إلى مرضه. وخشى أن يتزايد المرض، فأمر قواته بالعودة من حيث أتوا. يبدو وأن هذه الرواية استكملت حلقاتها لأن بلدوين وصل بصعوبة إلى العريش، ولقى حتفه فيها، فى أبريل 1118، وحمل جنوده جثته ليدفنوها فى كنيسة القيامة، بعد أن انتزعوا أمعاءه وألقوها فى المكان الذى يطلق عليه حتى الآن اسمه محرفا، فيسمى سبخة البردويل، وشبه جزيرة البردويل، ومحطة البردويل، فهى جميعاً تنسب إلى الملك الذى أغار "على الأطراف المصرية مرتين"، بينما كانت دولته لم تبلغ من العمر عشرين عاماً. ودلل بذلك ـ بجانب دلائل أخرى ـ على أن حركة الفرنجة التى تسمى الحركة الصليبية كانت تنطوى على أغراض توسعية.

ومن المصادفات التاريخية، أن "إسرائيل" غزت مصر فى 1967، بينما لم يكن عمرها يزيد على عشرين عاماً. فهل نقول ما أشبه الليلة بالبارحة؟ أو أن هذه طبيعة كل كيان عدوانى دخيل يقوم على أرض فلسطين، فيجد أن بقاءه مرتبط بغزو مصر، أو إضعافها، أو احتلالها، لو تمكن. ولكنه غالباً لا يتمكن، فلا يلبث أن تدور الدائرة عليه، حين تنقلب حال مصر من ضعف إلى قوة. ولكن أحداث اليوم مهما تقاربت من أحداث الأمس لا يمكن أن تتماثل معها، لأن الظروف متغيرة ..

الفاطميون والشيعة

الفاطميون نسبة إلى فاطمة الزهراء بنت النبى محمد صلى الله عليه وسلم وزوجة على بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين. وقد أسسوا الدولة أو الخلافة الفاطمية، على يدى أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا وأصله من الكوفة، وكان من أكبر دعاة أئمة الشيعة ونجح فى موسم الحج فى استمالة جماعة من قبيلة "كتامة" من البربر إلى عقيدة الشيعة، وصحبه هؤلاء إلى بلادهم، عند عودتهم من الحج، حيث تجمع حوله عدد كبير من العرب والبربر، وتمكن فى عام 909 من الاستيلاء على مدينة "رقادة" من أيدى الأغالبة، وتم استدعاء سعيد بن الحسن أحد أئمة الشيعة، ونودى به خليفة باسم "عبد الله المهدى" ثم فتح الفاطميون مصر فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى 969، وأنشأ مدينة القاهرة، وامتد نفوذه إلى الشام. والخلفاء الفاطميون أربعة عشر خليفة، كان أولهم هو المهدى (عبد الله أبو محمد 909 ــ 1034) وأخرهم هو العاضد (عبد الله أبو محمد 1160 - 1171).

مصر هدفاً
من بلدوين إلى عموري

◎ مشكلات فرنجية

أثار موت بلدوين الأول إحدى القضايا التي لعبت دوراً في إضعاف الحكم في مملكة بيت المقدس الفرنجية، أو الصليبية، كما توصف عادةً، وهي مسألة وراثة العرش. وكان بلدوين قد ورث أخاه جودفري في الحكم، ولكنه لم يحدد نظاماً للوراثة بعده، كان الطامعون في عرش المملكة كثيرين. واجتمع مجلس المملكة الذي كان يضم رجال الدين والنبلاء. كان هناك أكثر من مرشح برز من بينهم اثنان هما بوستاس دي بوايون أخو بلدوين، وبلدوين دي بورج قريبه وحاكم الرها. وقد انقسم المجلس إلى فريقين. وحسم الأمر في النهاية جوسلين كورتيناي أمير الجليل "أقوى أعضاء المجلس-نفوذاً وسلطاناً" والذي أيد تنصيب حاكم الرها ملكاً لمملكة بيت المقدس، لأنه ابن عم الملك الراحل، وهو من ناحية أخرى آخر الفرسان الأحياء من كبار فرسان الحملة الأولى. وفضلاً عن ذلك، فإن جوسلين كان ينتظر أن يكافئه الملك الجديد بأن يتولى إمارة الرها. "وفي نفس اليوم الذي تم فيه تشيع جنازة الملك (بلدوين الأول) ظهر بلدوين دي بورج في بيت المقدس فجأة فحسم بذلك ما دار في المجلس من نقاش وجدال ... فجرى استقباله بمظاهر الفرح والسرور، واختاره مجلس المملكة بالإجماع ملكاً على بيت المقدس. وفي يوم أحد القيامة، في 4 أبريل سنة 1118، قام البطريرك

اونولف بتتويجه[1].

واجه بلدوين الثانى عند تسلمه مقاليد الملك فى مملكة بيت المقدس تنامى التقارب بين دمشق والقاهرة، فى مواجهة الخطر الفرنجى. وسعى الملك الجديد إلى إبعاد القاهرة عن دمشق وإبعاد دمشق عن القاهرة، وفصم عرى التواصل بين طغتكين والأفضل، اللذين تنبها معاً إلى أهمية التقارب بينهما، مما يضع مملكة بيت المقدس بين فكى كماشة عربية ـ إسلامية. ومع أن كلاً منهما، أى الأفضل وطغتكين، كان يواجه مشاكل داخلية، إلا أنهما معاً سارا فى درب التواصل والتقارب، وقطعا فيه خطىً إن كانت قليلة إلا أنها كانت مؤثرة، ووضعت اللبنات الأساسية على درب المواجهة الصحيحة ضد الفرنجة، التى سيتكامل بنيانها خطوة بعد أخرى، فى السنوات التالية. ولكن الأمر المؤكد أن ثقة طغتكين فى وقوف الأفضل معه جعلته يجرؤ على أن يطالب الفرنجة بأن يعطوه كل الأراضى التى تقع فيما وراء نهر الأردن. وكان هذا المطلب فى حد ذاته يعنى انتباه حاكم دمشق إلى ضرورة ضرب المخطط الفرنجى فى عزل الشام ومصر، عن بعضهما. وبعد وقت غير طويل من هذا المطلب، وفى العام 1119 احتشد جيش مصرى كبير عند اسدود. ولا يخلو من المغزى والأهمية أن طغتكين تلقى دعوة مصرية لقيادة هذا الجيش، الذى واجه جيشاً فرنجياً، وظل كل منهما يرابط فى موقعة لمدة ثلاثة شهور، ثم انصرفا دون أن يشتبكا، ولكن واقعة مهمة تم تسجيلها، وهى هذا التقارب العسكرى الواضح بين دمشق والقاهرة.

وقبل أن نتتبع مسار هذا التقارب، يجب أن نتذكر أن بلدوين الثانى

---

(1) رنسيمان، الجزء الثانى، ص230 ـ231.

ملك مملكة بيت المقدس الفرنجية وقع أسيراً فى أيدى العرب والمسلمين فى أبريل 1123، وكان قد أسر قبله جوسلين حاكم الرها فى سبتمبر 1122، والتقى الأسيران معاً فى سجن قلعة "خرتبرت". واختار مجلس المملكة يوسناس جارنييه، حاكم قيسارية والجليل، نائباً عن الملك، حتى يتم فك أسره.

◎ صُور نقطة لقاءٍ

وفى هذا الوقت، تجلى التقارب المصرى ـ الشامى كأوضح ما يكون فى مدينة صُورٍ، التى ظلت تابعةً للدولة الفاطمية، يعترف لها سكان المدينة بالسيادة عليهم، بينهما كانوا قد استقبلوا والياً عليهم من جانب طغتكين حاكم دمشق. كانت صُوُر، إذن، تحت سيادةٍ ثنائيةٍ مشتركةٍ مصريةٍ ـ شاميةٍ، ولم تنازع إحداهما الأخرى، لمدة عشر سنوات تقريباً، وطالما بقى الأفضل حياً؛ إذ بدا حرصه شديداً ـ فى ذلك الوقت ـ على نسج علاقة قوية مع حاكم دمشق. فلما اغتيل الأفضل فى 1121، ظن الخليفة الآمر أن من مصلحته استعادة السيادة المنفردة على صور، فأنفذ لها أسطولاً حمل واليها من جانب طغتكين، ونقله إلى القاهرة، ولم يحاول طغتكين أن يعارض ذلك أو أن يقاتل الفاطميين على مدينة يتهددها الخطر الفرنجى. كان كل ما يرجوه ألا تسقط المدينة فى يد العدو الحقيقى، الذى حاول الاقتراب من المدينة، وفرض عليها الحصار، مستعيناً كالعادة، فى مثل هذه الحالات، بأسطول بندقى، ظل يتربص انتظاراً لأية نجدة بحرية من القاهرة. عندئذ تنبه الآمر إلى الخطأ الذى وقع فيه، وأمر بتسليم المدينة إلى طغتكين الذى أرسل لها قوات ومؤناً تعينها وأهلها على مواجهة الحصار. كان الأسطول المصرى

قد تلقى ضربةً عنيفةً على أيدى البنادقة فى 1123. وساعد غياب القوة البحرية المصرية فى استمرار الحصار الفرنجى على صُور طوال الربيع وأوائل الصيف من العام 1124، ثم اضطرت المدينة إلى الاستسلام فى 7 يوليو من ذلك العام، الذى شهد فى أواخر أغسطس إطلاق سراح بلدوين من الأسر. وبعد عامٍ تقريباً، وفى صيف 1125 قام بلدوين بمظاهرة عسكرية عند عسقلان.

ولكن الفاطميين، وبالرغم من مشكلات وصراعاتٍ داخلية عنيفة، ما لبثوا أن أعادوا بناء الأسطول الذى تمكن فى خريف 1126 من شن غاراته على الموانى الشامية التى استولى عليها الفرنجة. ولكنه لم يحقق شيئاً ذا بال، فعاد إلى القواعد التى انطلق منها، فى الإسكندرية ودمياط.

وفى تلك السنوات، كانت قد بدأت تتردد وبقوة الدعوة إلى ضرورة الجهاد ضد الفرنجة، والدعوة إلى ضرورة العمل المشترك بين أجزاء المشرق العربى ـ الإسلامى، وبناء الجبهة المتحدة. وظهر عماد الدين زنكى حاكماً قوياً فى الموصل، ثم امتد حكمه إلى حَلَب عاصمة الشمال الشامى، وبدأ يتطلع إلى دمشق. ورأى بلدوين الثانى أن رياح الخطر تتجمع فى الأفق، فحاول أن يدخل دمشق ويستولى عليها، ولكنه لم يحقق النجاح، خاصة وأنه شغلته وقتئذ مسالة من سيتولى الملك بعده فى بيت المقدس. وكان يؤرقه بشكل خاص أنه لم يكن له أبناء ذكور، وكان له أربع من البنات، هن مليسند، وأليس، وهودريانا، وجوفتا، التى طلقت الدنيا، واختارت الرهبنة فى أحد الأديرة. وقد وافق نبلاء المملكة بالإجماع على أن تتولى مليسند العرش بعد أبيها. ووقع الاختيار على فولك الخامس على أن

يكون زوجاً لها، وتم الزواج في ربيع 1129. ومع أن الأحداث كانت تشير حتى ذلك الوقت إلى أن فولك هو الملك المنتظر، إلا أن بلدوين الثانى عاد وقرر أن يكون على رأس حكومة بيت المقدس ثلاثة أفراد هم فولك ومليسند، وبلدوين ابنها. لم يكن الهدف من وراء ذلك تقسيم المملكة، بل إشراك الثلاثة فى إدارتها. وبالفعل، توفى بلدوين فى 21 أغسطس 1131 وانتقل العرش إلى فولك وزوجته الملكة مليسند، دون إجراء أى انتخاب فى مجلس المملكة. ولكن الأمور لم تستقر تماماً للملك الجديد. الذى واجه مصاعب من عدد من الأمراء المنافسين والطامعين فى عرش مملكة بيت المقدس، وكان من أهمهم وأخطرهم هيو الثانى أمير يافا، الذى نشأ وسط بنات بلدوين الثانى، وغزا قلوبهن بوسامته، خاصة مليسند التى ظل يتردد عليها فى حرية بعد أن تزوجت فولك وبعد أن صارت ملكة. أليس صديقاً لها منذ طفولتهما؟!

◎ حليف لا خير فيه

أوغر سلوك هيو قلب فولك، خاصة وأن أجواء المملكة ما لبثت أن امتلأت بالشائعات عن تعلق الملكة مليسند بهيو الثانى الشاب الوسيم. وكاد هذا يثير الانقسام بين نبلاء المملكة الذين انقسموا إلى فريقين، أحدهما مع الملك والثانى مع الأمير. ويروى معاصرو الأحداث من مؤرخى الفرنجة أن الأمير ولتر، أمير قيسارية، وابن زوجة هيو الثانى، هو الذى أشعل نيران الحقد والضغينة، بين فولك وهيو. وفى داخل مملكة بيت المقدس، وبناء على اتفاق مع الملك، وجه ولتر إلى هيو تهمة خيانة الملك. أنكر هيو التهمة. وطبقا للقوانين التى كانت سائدة فى مملكة بيت المقدس، قرر البارونات

إقامة مبارزة بين هيو وولتر.

لم تكن مثل هذه القصة أو العلاقة تعنينا، ونحن نتتبع حديث مفاتيح القدس فى القاهرة، لولا ما ترتب عليها من نتائج ترتبط بالموضوع الذى نتحدث فيه. لقد تغيب هيو فى يوم المبارزة، وأياً كان سبب غيابه، فإن الحكم صدر بإدانته. وعندما سمع القرار أبحر فى الحال إلى عسقلان، وطلب المساعدة من المصريين ضد الملك فولك، وهذه واحدة من المرات النادرة التى التجأ فيها أمير من أمراء وأميرات الفرنجة طالباً العون من أعداء "شعبه" ودولته. وبالفعل، صحبت قوة مصرية الأمير هيو، ورافقته إلى يافا، وعندئذ تقدمت قوات الملك فولك بسرعة، وخضعت يافا للملك دون قتال، وانسحبت القوة المصرية، إذ أدركت أن هيو حليف لا خير فيه. وعوقب هيو بالنفى ثلاث سنوات. وقبل أن يذهب إلى منفاه، دخل هيو فى أوائل 1133 مدينة بيت المقدس، لوداع أصدقائه، حيث تعرض لحادث اعتداء، لم يعش بعده طويلاً. وترك موته نوعاً من الشك بين الملك والملكة، وأرق الخوف من انتقامها جميع أعداء هيو. ولم ينج الملك نفسه من ذلك "على أن كل ما أراده الملك هو أن يظفر بعطف زوجته، فانصاع إليها فى كل شئ. وإذ خاب حظها فى الحب لم تلبث أن لقيت السلوى فى ممارسة القوة والسلطان"[1]. وبالفعل، أصبحت مليسند الحاكم الحقيقى فى بيت المقدس، ولم يكن فولك يتصرف فى كبيرة أو صغيرة إلا بعد الرجوع إليها "فقد كانت امرأة بارعة فى العمل، وكانت تحمل قلب رجل بين ضلوعها".

---

(1) رنسيمان، الجزء الثانى، 307.

وستظهر قوة شخصية مليسند، وصراعها على السلطة مع ابنها بلدوين الثالث، فيما يلى من سنوات فقد توفى فولك، وتولى العرش بعده بلدوين الثالث، فى 1144. وإذا كانت هذه بعض مظاهر الصراع على السلطة فى مملكة بيت المقدس، فيجب أن نرى الصورة على الجانب الآخر، أى فى البلاط الفاطمى، فى القاهرة، التى تمسك بيديها مفاتيح القدس. فمنذ أواخر القرن الحادى عشر الميلادى، دخلت الخلافة الفاطمية دور الاضمحلال والسقوط، وبدت عاجزة عن الاحتفاظ بكيانها. وبعض الكتاب والمؤرخين المعاصرين، فى محاولتهم الدفاع عن الحكم الفاطمى، يحاولون القول بأن الخلافة الفاطمية انتهت بسيطرة بدر الجمالى على السلطة فى القاهرة، ويستشهدون على ذلك بأقوال بعض المؤرخين الكبار مثل ابن الأثير والمقريزى، ويخلصون من هذه الاستشهادات إلى القول: "إن بدراً الجمالى لم يكتف بإنهاء سلطة الخلافة الفاطمية والسيطرة على البلاد سيطرة كاملة تنتهى بموته، بل تعدى الأمر إلى ما يمكن أن نسميه إنشاء أسرة مالكة جديدة، إذا لم تحمل اسم الخلافة لاستحالة ذلك عليها، فقد كان لها جميع مظاهر وحقائق الأسرة المالكة من سلطة مطلقة وإقامة ولاية عهد. فحين مات بدر الجمالى تولى بعده ابنه وولى عهده الأفضل الملقب شاهنشاه". أما المقريزى فكان قد وصف بدر الجمالى بأنه "أول وزراء السيوف الذين حجروا على الخلفاء بمصر".

ومن المقرر تاريخياً، أن الخلافة الفاطمية اجتازت فعلاً دورين من أدوار الحكم، عرف الدور الثانى منهما بسيطرة الوزراء على الخلفاء، فقد

ازداد نفوذ الوزراء تزايداً هائلاً، وأصبحوا يسيطرون على كافة مقاليد الحكم، ولا يتحكمون فقط فى الخلفاء وتوجيههم، بل تحكموا فى تعيينهم وخلعهم، وفى حجبهم عن الناس.

يقول المقريزى فى كتاب "الخطط والآثار" إن وزير السيف من عهد الوزير بدر أمير الجيوش إلى آخر الدولة صار "هو سلطان مصر، وصاحب الحل والعقد، وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكتاب وسائر الرعية وهو الذى يولى أرباب المناصب الديوانية والدينية".

وبجانب ذلك، فإن التصارع والتنافس بين رجال الدولة على احتلال مقعد الوزارة فى العصر الفاطمى الثانى جعل مصر ساحة حرب وقتال من أجل الفوز بهذا المنصب، منصب الوزارة.

ويعبر عن ذلك المؤرخ الكبير ابن الأثير بقوله:

"كانت الوزارة فى مصر لمن غلب، والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين، وقَلَّ أن وَلِيَها أحدٌ بعد الأفضلِ إلا بحربٍ وقتالٍ، وما شاكل ذلك".

وزاد الطين بِلَّةً، كما يقولون، أن كان معظم خلفاء العصر الفاطمى الثانى قد وضعوا فى مقعد الخلافة وهم أطفال ــ إن الخليفة المنتصر بالله الذى حكم أطول مدة حكمها فرد فى التاريخ الإسلامى (حوالى 60 سنة، فقد تولى الخلافة فى 1035 وتوفى عنها فى 1094) قد تولى شئون الخلافة وهو لم يتجاوز السنوات السبع من العمر. فلما توفى قام الأفضل بن بدر الجمالى بمبايعة ابن الأمير أبى القاسم أحمد الذى لقب بالمستعلى. وكانت أم المستعلى أختاً للأفضل، بذلك ضمن الأفضل أن يظل مطلق اليدين فى

التصرف بشئون مصر. وأدى ذلك إلى معارك وخلافات دامية فى وقت كان فيه الفرنجة يتنادون لغزو بلاد العرب والإسلام. فلما توفى المستعلى، قام الأفضل فى 1101 بتولية ابنه أبى على شئون الخلافة، ولقبه بالآمر بأحكام الله، وكان عمره وقتذاك خمس سنين فقط.

ولا أدل على مكانة الأفضل من ذلك النص الذى ورد فى سجل تولية الآمر الخلافة، وهو:

"وكان مما ألقاه إلىّ وأوجبه علىّ (يقصد والده المستعلى) أن أعلى محل السيد الأجل الأفضل من قلبه الكريم، وما يجب له من التبجيل والتكريم، وأن الإمام المنتصر بالله كان عندما عَهِدَ إليه (أى إلى المستعلى) ونص بالخلافة عليه، أوصاه أن يتخذ هذا السيد الأجل خليفة وخليلاً، ويجعله للإمامة زعيماً وكفيلاً ... ويفوض إليه تدبير ما وراء السرير، وأنه عمل بهذه الوصية، وأسند إليه أحوال العساكر والرعية، وناط أمر الكافة بعزمته الماضية وهمته العلية ... فأوصانى أن أجعله لى ـ كما كان له ـ صفياً وظهيراً، وألا أستر عنه من الأمور صغيراً ولا كبيراً، وأن أقتدى به فى رد الأحوال إلى تكلفه وإسناد الأمور إلى تدبيره".

◎ ثروة الوزير

لقد ساد الأفضل وسيطر. وعندما كبر الخليفة الآمر وشب عن الطوق شعر بوطأة وصاية الأفضل عليه، وتفرده وحده بشئون الحُكْم التى لا يملك منها الخليفة صغيراً أو كبيراً. عندئذٍ بدأ الآمر يفكر، ويدبر، ورأى أن من مصلحته الخلاص من الأفضل. أوعز الخليفة إلى أبى عبد الله محمد بن البطائحى ـ وهو من أفراد حاشية الأفضل ومن خاصته المقربين ـ بتدبير قتله.

وفعلاً دبر البطائحى مؤامرة لاغتيال الأفضل، فى ديسمبر 1121، فى أحد شوارع القاهرة. ولكن هناك فصلاً مثيراً فى هذه المؤامرة، إذ يقال إن الأفضل تحامل على نفسه، ونجح فى الوصول إلى داره، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. ولما علم الآمر بذلك، خف إلى زيارته والاطمئنان على وضعه، ثم تحين فرصة خروج الناس من حول الأفضل "فقيل إنه جعل على وجهه مخدة، وقعد عليه، حتى أزهق روحه".

إلى هذا المدى تدهورت الأمور، وأصبح الخليفة نفسه قاتلاً أو متهماً بالقتل، بينما تولى البطائحى مدبر محاولة الاغتيال منصب الوزارة. لقد تردى الصراع فى قصور الخلفاء والحكام إلى مستوى لم يكن منتظراً، خاصة وأن العدو كان يقف على حدود الدولة، وينهب أجزاءً منها، ويفكر فى السير إليها.

وحتى تكتمل الدائرة، قام الآمر بمصادرة أملاك الأفضل، وما أدراك ما هى كماً وكيفاً، وكانت تشمل: "مراكب وبغالاً وخيلاً ورقيقاً وحلياً وجواهراً". أمضى الآمر أربعين يوماً وليلةً كى ينقل ما وجده فى قصر الأفضل "وهو شئ كثير لا يوجد له مثيلٌ إلا عند الخلفاء".

ولم تكن ثروة الأفضل هذه أمراً استثنائياً فى ذلك الوقت، فهكذا كانت ثروات الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ويبدو أن هذه الثروات صرفت غالبيتهم العظمى عن القيام بواجباتهم فى الكفاح والجهاد. ويبدو أن ثروة بدر الجمالى، والد الأفضل، لم تكن أقل من ثروة ابنه، وقد رصدها أحد المؤرخين وذكر أنها كانت كما يلى:

"ستمائة ألف ألف دينار عيناً (600 مليون) ومائتين وخمسين أردباً دراهم،

وخمسة وسبعين ألف ثوب أطلسي، وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مائة مثقال في عشرة مجالس، وفي كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مشدود بذهب، بلون من الألوان، أيما أحب منه لبسه. وخمسمائة صندوق كسوة لخاصة من دق تنيس ودمياط. وخلف من الخيل والرقيق والبغال والمراكب والطيب والحلى والتجمل ما لا يعلم قدره إلا الله تعالى. وخلف من البقر والجواميس والغنم ما يستحى الإنسان من ذكر عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار. ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم الجوارى والنساء".

وبدر الجمالي وابنه وثروتاهما نماذج لثروات وزراء العهد الفاطمي الثاني عهد سيطرة الوزراء. وقد كانت هذه الثروات الضخمة أحد دوافع رجال الدولة إلى التكالب على مقعد الوزارة.

وإذا كان الأفضل الجمالي ـ بالرغم من كل سلبياته ـ سعى إلى مواجهة الفرنجة، إلا أن الوزراء الذين جاءوا بعده لم يكونوا في مستواه، على الأقل مستوى إدراكه السياسي، إذ يبدو وأن كفاءته العسكرية لم تكن ترقى لمقدرته السياسية.

وشهدت تلك الفترة أيضاً خطراً آخر هو تزايد النزاع بين طوائف الجيش من أتراك وسودانيين، ومغاربة، ثم أرمن، بجانب العساكر المصرية. إذن كانت الصراعات الداخلية محتدمة، صراعات الخلفاء، ومن منهم أحق بالخلافة، وهم في أغلبهم تولوا الخلافة صغاراً، وصراعات الوزراء، ثم صراعات فرق الجيش، وقد أوهنت جميعها قوة الدولة الفاطمية، وأضعفت

قدرتها على القتال والحرب، مما زاد الفرنجة طمعاً في غزو مصر نفسها.
كانت الخلافة الفاطمية تتآكل.

✠ ✝ ✠

خلافة تحتضر

◎ سقوط عسقلان

ما أن انتصف القرن الثانى عشر حتى بدت الخلافة الفاطمية وهى نوشك على السقوط والانهيار. لقد توالى بعد مقتل الأفضل عدد غير قليل من الوزراء الضعفاء غير الأكفاء، وظل الخليفة الآمر فى الحكم إلى أن لقى مصرعه فى 1129. وتولى الخلافة بعده الحافظ ابن عمه، وحاول أن يخفف من قبضة الوزراء على الحكم، فعين ابنه الحسن وزيراً، ولما رأى الخليفة من ابنه علامات التمرد وعدم الإخلاص أمر بقتله فى 1135. وأدى تولى بهرام الأرمنى الأصل مقعد الوزارة إلى نتائج وخيمة تسببت فى معارك ومذابح جعلت الدماء تسيل لعدة أيام فى شوارع القاهرة. ومع ذلك ظل الحافظ يتعلق بعرش تَحُفُّهُ الأخطار إلى أن توفى فى 1149. أما حكم ابنه الخليفة الظافر فقد شهد فى بدايته الصراع بين وزيرين متنافسين منافسة حادة هما أبو الفتح محمد بن مصال وعلى بن السلاّر.

"هذه القصة التى لا نهاية لها عن التناحر وسفك الدماء أنعشت آمال أعداء مصر"أى الفرنجة. ففى سنة 1150، بدأ بلدوين إعادة تعمير غزة، لتكون قاعدة لشن أعمال حربية ضد عسقلان التى كانت لا تزال فى أيدى الفاطميين. وكان بلدوين الثالث قد خلف فولك ملكاً على بيت المقدس، فى 1144. وبعد مرحلة من الصراع مع والدته، استطاع أن ينفرد بالحكم وحده، وفى عهده جاءت الحملة الصليبية الثانية، التى حققت فشلاً ذريعاً، وعاد

فرسانها وملكاها ملك فرنسا وملك المانيا ـ يجرون ذيل الخيبة.

وما أن انتصر بلدوين الثالث على أمه، حتى سعى إلى التعويض عن الفشل الكبير الذى لحق بالحملة الصليبية الثانية، وكى يوازن الانتصارات التى حققها نور الدين محمود فى الشام اتجهت أنظار ملك مملكة بيت المقدس إلى عسقلان، التى ظلت حتى عام 1153 شوكة فى داخل الكيان الفرنجى، تؤرق انتصاراته، فقد كانت القاعدة التى نطلق منها الحملات المصرية ضد مملكة بيت المقدس. وهى الحملات التى أذاقت الفرنجة "الويلات القادحة" حسب تعبير وليم الصورى، الذى يقول:

"كان من الواضح أن أمثل خطة فى الوقت الراهن (1153) هى أن يدمروا (أى الفرنجة) الأحراج الموجودة ناحية عسقلان، وهى الأحراج التى كانت ذات قيمة عظمى للمواطنين هناك ... لذلك قام عسكر المملكة (أى مملكة بيت المقدس) بقضهم وقضيضهم جاعلين هذا الهدف نُصب أعينهم، وتجمعت أعدادهم الكبيرة أمام المدينة المذكورة، ورأوا أنه إذا ما كتب لهم النجاح فى خطتهم هذه فحسبهم هذا وكفى"!

وصلت قوات الفرنجة إلى عسقلان فى 25 يناير 1153. وكانت عسقلان ـ بشهادة وليم الصورى ـ شديدة التحصين، فهى نصف دائرة على شاطئ البحر "ويمتد قطرها بامتداد الشاطئ، على حين يقع قوسى دائرتها على الأرض المطلة نحو الشرق. وتوجد المدينة كلها فى حوض ينحدر إلى البحر: وتحيطها من شتى نواحيها الروابى الصناعية التى تنهض عليها الأسوار ذات الأبراج التى تفصل بعضها عن بعض مسافات متساوية، وكلها مبنية من الحجر الأصم، ويربط بعضها ببعض الأسمنت الذى هو أشد صلابة

من الحجر. أما أسوارها فعريضة الاتساع ذات سمك لابأس به، وارتفاع كبير. كما أن المدينة محاطة ـ زيادة على ذلك ـ باستحكامات إضافية لها ذات صلابة، وقد أحكم تحصينها".

كانت عسقلان إذن، في ذلك الوقت، من أمنع الحصون. وقد عجز جيش الفرنجة لمدة شهور عن إلحاق ضرر بأسوارها. في حين وصل الأسطول الفاطمي إلى مياهها في يونيو سنة 1153، وكان يتألف من سبعين سفينة مُلئت رجالاً وذخيرة وأغذية. أدى وصول هذا الأسطول إلى رفع الروح المعنوية لسكان المدينة، ولكن هذه السفن أفرغت حمولتها ورحلت، تاركة عسقلان تحت الحصار، مع أن حكام مصر عندئذ كانوا يرون أنه إذا قُدر للمدينة أن تسقط في قبضة الفرنجة "فلن يحول حائل حينذاك بين قادتهم وبين غزو مملكة مصر، وامتلاكهم إياها عنوة" حسب تقدير الصورى.

وبعد أن غادر الأسطول المصرى ميناء عسقلان، حدثت ثغرة ـ بالصدفة ـ في أحد أسوار المدينة ـ وتمكن أربعون من فرسان الفرنجة من التسرب لداخل المدينة، واستطاع المدافعون القضاء عليهم جميعاً، وسد الثغرة، وعلقوا جثثهم على أسوار عسقلان. أوهنت الهزيمة عزيمة الفرنجة، وفكر فريق منهم في رفع الحصار عن عسقلان، والتراجع عنها. ولكن فريقاً أخر، أشد عزيمة، أصر على مواصلة الحصار، مما اضطرت معه حامية عسقلان إلى الاستسلام وطلب الأمان، في 19 أغسطس 1153. "وبينما تدفق من المدينة سيل كبير من المسلمين، قاصدين مصر براً وبحراً، دخل الفرنج المدينة في موكب رسمي، وتسلموا القلعة بما زخرت به من المال والسلاح".

وباستيلائهم على عسقلان، بسط الفرنجة كامل سيطرتهم على

ساحل الشام وفلسطين، من الإسكندرونة فى الشمال، إلى غزة فى الجنوب، وفقدت الدولة الفاطمية قاعدة انطلاقها لضرب معاقل الفرنجة، الذى قوى ساعدهم بهذا النصر الذى جاء فى وقت فقدت فيه الدولة الفاطمية فى مصر قوتها، ووهنت عزيمتها، وضعفت إرادتها. وحين تولى عمورى، شقيق بلدوين وحاكم يافا، إقطاع عسقلان، كان هذا بداية فصل آخر فى انتظار الفرنجة اللحظة المناسبة لغزو مصر، خاصة حين يصبح عمورى ملكاً لبيت المقدس.

ولكن الأحداث ما لبثت بعد عام أن فاجأت الفرنجة بحدث كانوا يترقبونه ويخشونه، فقد أدى سقوط عسقلان إلى تشديد نور الدين محمود محاولاته لدخول دمشق، وتحقق هذا فعلاً فى أبريل 1154. ومنذ ذلك اليوم، بدأ الجانبان، الفرنجى والدمشقى، سباقاً نحو مصر !

✠ ✞ ✠

الطريق إلى القاهرة

◎ شاب غافل وقائد مجاهد

كان انتزاع عسقلان آخر إنتصار كبير حققته مملكة بيت المقدس الفرنجية. وفى الوقت نفسه فإن دحول نور الدين دمسق جعل الأوصاع تأخذ سيرة اخرى كان نور الدين قائداً ومقاتلا من طراز خاص، كان نقيضا لخلفاء ووزراء وقادة الدولة الفاطمية. كان مناضلاً صلباً، فيه من المناضلين عفتهم وبعدهم عن الإغراق فى الملذات، والتكالب على جمع الأموال "كان زاهداً فى النعيم، قلما يستريح إلى فراش وثير". قيل إنه توفى وليس له بيت خاص، فأين هذا من حكام مصر وقتئذ ولكل منهم من الدور والقصور الشيء الكثير ولعل هذا الترف هو الذى اقعد همتهم عن القتال والنضال ولكن مصر أياً كان وضع حكامها ـ أكبر من أن تستكين لهزيمة مثل تلك التى وقعت فى عسقلان وحينما كان نور الدين يدخل دمشق، كان أسطول مصرى يتأهب للقيام بغاراته على الموانى الضائعة على ساحل الشام واتجه هذا الأسطول إلى يافا وعكا وصيدا وبيروت وطرابلس، فأَسَرَ وقَتَلَ واستولى على سفنٍ صليبيةٍ. ومثل هذه الغارة أيقظت الفرنجة مرةً أخرى على أهمية مصر، ولكنها فى الوقت نفسه لم تخف عن عيونهم مدى الضعف الذى أصاب الخلافة الفاطمية. ويبدو أن جواسيسهم وعيونهم كانوا يمدونهم بمعلومات وفيرة عن الأوضاع الداخلية ومظاهر التفكك والانحلال فى حكمها. ولذلك، بدأ الفرنجة يترجمون طمعهم فى مصر إلى أعمال

ومعارك وغزو أو محاولات غزو فقاموا فى 1158 بحملة استطلاعية عند العريش، ولكن وحدة مصرية تصدت لهم وأجبرتهم على العودة خاسرين.

ولا شك أن الضعف يُغرى بالطمع فى الضعيف. ولما زادت أحوال مصر سوءاً، زاد طمع الفرنجة فيها، كى يضمنوا أمن ممتلكاتهم فى الشام. وفى دمشق، كان نور الدين واثقاً من أن ضم مصر سيتيح له من الإمكانات والقوة ما يساعده على ضرب ممالك الفرنجة. ولو أن مصر كانت فى قوتها، ومدت يدها وقتئذ إلى دمشق نور الدين لأدى هذا إلى الإسراع فى نهاية الوجود الفرنجى. ولكن مصر الفاطمة كانت غارقة فى صراعات حكامها وخلافاتهم الشخصية، فاشتد بها الضعف، وارداد الاضطراب حتى أصبح فوضى.

لقد سقطت عسقلان، بأيدى الفرنجة، فى ظل الخليفة الظافر "وكان شاباً غافلاً، لا يصلح إلا للعبث" وكان رجال دولته على مثاله، حتى أن واحداً منهم هو نصر ابن الوزير عباس الصنهاجى قتل الخليفة والقى جثته فى بئر البيت. ولما طلع الصباح زعم الوزير أبو القاتل أن الخليفه غرق فى النيل أثناء نزهته. وحتى يكمل مؤامراته، اتهم اثنين من إخوة الخليفة بقتله، وضرب رقابهما، ثم أحضر ابنا صغيراً للخليفة القتيل يدعى عيسى إلى مجلسه، وبه القتيلان، فلما رآهما الطفل أصابه فزع. ولكن الطفل المفزوع تم تنصيبه خليفة جديداً باسم الفائز، واستمر حكمه سبع سنواتٍ عجافٍ من1154.

وسارت الأمور بعد ذلك فى المسار الذى كانت تجرى عليه فى تلك الأيام؛ خرج والى المنيا طلائع بن زريك وهو أرمنى الأصل، ودخل

القاهرة، واستولى على شئون الحكم، وطارد عباساً وابنه، ففروا إلى الشام، وخرج عليهما جماعة من جنود الفرنجة، فقتلوا الأب وأرسلوا الابن إلى القاهرة حيث لقى مصرعه.

أصبح ابن زريك الآمر الناهى فى شئون مصر، وتلقب بالملك الصالح، وظل قابضاً على أعنة السلطة إلى أن توفى الفائز فى 1160، وكان فى الحادية عشرة من عمره، فنصب ابن زريك فى الخلافة خليفة آخر، سمى العاضد.

◎ نادرة فاطمية

وتعتبر تولية العاضد منصب الخلافة نادرة من نوادر أواخر أيام الدولة الفاطمية فى مصر. وقد رواها المقريزى بقوله:

"لما مات الخليفة الفائز، ركب الصالح بن زريك إلى القصر بثياب الحزن، واستدعى زمام القصر، وسأله عمن يصلح فى القصر للخلافة، فقال ها هنا جماعة، فقال: عرفنى أكبرهم، فسمى له واحداً، فأمر بإحضاره. فتقدم إليه أمير يقال له "على بن الزيد"، وقال له سراً: "لا يكن (الوزير) عباس أحزم منك رأيا حيث قبل الصغير وترك الكبير، واستبد بالأمر". فمال (الصالح) إلى قوله، وقال للزمام: أريد منك صغيراً. فقال:عندى ولد الأمير يوسف بن الحافظ، واسمه عبد الله، وهو دون البلوغ. فقال (الصالح) عَلّى به. فأحضره بعمامة لطيفة وثوب مُفَوَّط ... وكان عمره نحو إحدى عشرة سنة ثم أمر صاحب الكسوة أن يحضر بذلة ساذجة خضراء، وهى لبس ولى العهد إذا حزن على من تقدمه. وقام فألبسه إياها" هكذا تم تنصيب الخليفة، وتمت مبايعته فى مشهد يصدق عليه وصف المضحكات المبكيات

التى انتهزها بلدوين الثلث ملك بيت المقدس فقام يهدد بغزو مصر. ولم يمنعه من ذلك إلا عرضاً سخياً تلقاه من القابضين على أزمة الحكم فى القاهرة، إذ تعهدوا بأن يدفعوا له جزية بلغت مائة وستين ألف دينار، سنوياً.

ومضت المهزلة تستكمل فصولها، فثقلت قبضة ابن زريك على العاضد الذى تآمرت عمَّاته على وزيره، الحاكم الفعلى، وتم قتله فى 1161، ولكن ابنه رزيك هو الذى خلفه فى الوزارة. وما لبث الابن أن سار على خطى أبيه فى ظلم العباد، والاستبداد حتى على الخليفة نفسه وبعث العاضد إلى شاور بن مجيد السعدى حاكم قوص، وهى عاصمة الصعيد عندئذ طالباً نجدته وإنقاذه من العادل — لبى شاور طلب الخليفة. وأسرع إلى القاهرة وهزم زريك وحل محله فى الوزارة. ولم يكن شاور أقل طمعاً وفساداً ممن سبقوه من الوزراء. عاد الخليفة يبحث مرة أخرى عمن ينقذه من قبضة شاور، واستنجد هذه المرة بضرغام بن عامر، أحد قادة الجيش والذى تولى الصعيد مكان شاور.

أقبل ضرغام، ودخل القاهرة، وهزم شاور، وقتل ابنه الأكبر طيئاً، بينما نجا ابنه الثانى شجاع. وبدأ فصلٌ مريرٌ آخر من فصول الحكم والسياسة فى مصر، فى عصر من عصور التدهور. فقد لجأ شاور، فى بحثه إلى وسيلة يستعيد بها سلطاته، إلى نور الدين محمود صاحب دمشق. وقطع له ثلاثة وعود: أن يؤدى له ثلث دخل بيت المال فى مصر سنوياً، وأن يدفع رواتب الجند الذين يُرسلهم معه، وأن يكون نائباً له فى مصر.

أخذ نور الدين يتدبر الأمر، ويعيد التفكير فيما عرضه شاور. هاهى القاهرة تناديه. ولكنه بدأ متردداً أو شبه متردد، إذ لم يكن فى عجلة من

أمره، فقد كان من تخطيطه ألا يفتح جبهتين فى وقت واحد، وأن يركز دائماً على الجبهة الأساسية. لا شك أن القاهرة تستحق، فى هذه المرحلة، أن تكون جبهته الأساسية. ولكن الطريق إليها ليس سهلاً، إنه يعلئ بالأخطار، وفى اللحظة نفسها، فإن الوثوب إلى القاهرة، سيقلب التوازنات فى غير صالح الفرنجة. وكان يعرف أنهم لن يتركوه يحصل على مصر بسهولة. فهم مثله يدركون أهميتها، بل خطورتها. ولن يفرطوا فيها بسهولة.

◎ شاور وضرغام

ألحت القاهرة على نور الدين بأكثر مما كان ينتظر. فقبل أن يُبرم نور الدين أمره فيما عرضه شاور، تلقى عرضاً آخر من ضرغام حمله رسول منه، يدعو نور الدين أيضاً وبإلحاح إلى القاهرة، على أن يتخلى بالطبع عن شاور. عندئذ "أظهر نور الدين القبول فى الظاهر، وهو مع شاور فى الباطن". وأخيراً، حسم صاحب دمشق أمره، ورأى أن الفوائد أكبر من الخسائر، فقرر إرسال حملة إلى القاهرة.

كان شاور يُمنّى نفسه بأن يكون قائد الحملة. ولكن نور الدين لم يكن واثقاً فى إخلاصه، فعهد بقواته إلى أحد رجاله المخلصين وهو شيركوه، فبجانب أنه رجله منذ سنوات غير قصيرة، فإنه أيضاً: "لم يرسله فى أمر إلا نجح، ولم يوجه فى مضيق إلا انفتح" وكان شيركوه شجاعاً، قوى النفس، يكاد الخوف لا يتطرق إلى قلبه

فى 15 أبريل 1164 خرجت قوات نور الدين متوجهة إلى القاهرة، وكان طريقها هو خط وادى الغور إلى خليج العقبة. واصطحب شيركوه معه صلاح الدين ابن أخيه، وكان يومئذ فى السادسة والعشرين من عمره. لم

تكن أمام عموری منذ خلف أخاه بلدوين الثالث في 1163، على عرش بيت المقدس من سبيل سوى أن يهاجم الأضعف من جيرانه. وكانت ثروة مصر قد جذبت اهتمام عموری، اما الفوضى التي سادتها في ذلك الوقت فقد فتحت شهيته لغزوها، كما كان يدرك أن وقوع مصر في قبضة نور الدين سيجعل مملكته أعجز من الصمود طويلاً. وفي سبتمبر 1163 قاد عموری قواته إلى مصر، انطلقت القوات من عسقلان وغزه، ولم تواجه في تقدمها مقا مة تذكر حتى اقتربت من القاهره، ولم يبعد عنها سوى .. كيلو مترا وتمركز حيث عموری عند مدينة بلبيس التي توصف بأنها "مفتاح الدلتا كان النيل في ذلك الوقت في ايام الفيضان فقام ضرغام بقطع بعض الجسور، واضطر عموری إلى التقهقر والانسحاب.

أما في العام 1164 فقد لعب المتنافسان، شاور وضرغام، بالنار، وتمادى كل منهما في اللعبة، الى ان سقطا ضحيتها. ففي هذه الحقبة تطورت السياسة النورية والصليبية الى ساق مدانه الرئيسي شرق الدلتا، من الفرما إلى القاهرة وكان الأبطال على مسرح الأحداث هم نور الدين وسيركوه وصلاح الدين من ناحيه، وعموری وعدد من بارونات مملكته من ناحية اخرى. ومن وراء الفريقين شخصيتان تلعبان "الدور الثانوي الرئيسي". إبهما شاور وضرغام، كان كل منهما يظن أنه يحرك الأحداث. ويتحكم في حركتها، وما درى أن الأحداث أكبر منه.

وحين علم ضرغام بما تم الاتفاق عليه بين نور الدين وشاور، حاول أن يحتمي بمبدأ "عدو عدوي صديقي"، فلجأ إلى عموری الأول ملك بيت المقدس طالباً منه النجدة. ولكن عسكر شيركوه وصل في الأول من

مايو 1164 إلى القاهرة. حاول ضرغام الفرار، والنجاة بجلده. وتم القبض عليه وقتله. عندئذ التقط شاور أنفاسه، وظن نفسه قادراً على التخلص من عهوده لنور الدين. لقد استعاد شاور مركز الوزير، وظن نفسه قادراً على أن يطرد شيركوه وقواته. وبالفعل، طلب منهم عدم دخول القاهرة، كما أمرهم بالعودة إلى الشام. لم يرضخ شيركوه لأوامر شاور، وتراجع تراجعاً تكتيكياً، واحتل بلبيس التى تعرف أنها "مفتاح الطريق إلى القاهرة". ظن شاور أن من السهل عليه أن ينقلب على عقبيه. فلجأ إلى الفرنجة، وطلب النجدة من عمورى. وأغراه بوعودٍ كثيرةٍ، ووجد عمورى أن الأمر لا يستحق التأجيل أو البطء. وبسرعةٍ، جمع قواته، وتقدم حتى وصل إلى "فاقوس" من أعمال محافظة الشرقية حالياً. والتقى مع قوات شاور، وتقدموا جميعاً لحصار بلبيس. ولم تكن بلبيس حصينة، ولا ذات أسوار منيعة، ومع ذلك استطاع شيركوه أن يصمد للحصار ثلاثة شهور، فاضطر عمورى إلى الرحيل، بعد أن اتفق مع شيركوه على أن ينسحبا من مصر فى وقت واحد.

فى ذلك الوقت، كان نور الدين يضغط بكل قوته على الجبهة الشمالية، حتى يخفف الضغط على شيركوه فى مصر. وفتح صاحب دمشق جبهة حقيقية ثانية، ونجح فى الاستيلاء على حارم فى أغسطس 1164، كما أسر عدداً من كبار القادة الفرنجة، منهم بهيموند صاحب إنطاكية، وريموند صاحب طرابلس. كما حاصر بانياس التى استسلمت له، فى أكتوبر. وعندئذ، عقد هدنة مع الفرنجة، واقتسم معهم عائدات منطقة طبرية. ولم يكن شيركوه يعرف شيئاً عن انتصارات نور الدين، فقبل الانسحاب من مصر. فى حين عقد عمورى عزمه على عدم الانسحاب إلا إذا حصل من شاور على الجزية التى وعده بها. ولذلك ترك وراءه حامية عسكرية فى

القاهرة.

وهكذا انتهت الجولة الأولى من جولات نور الدين وعمورى من أجل الاستيلاء على مصر. وكان شيركوه، بخبرته العسكرية، أكثر تصميماً على دخول مصر، حتى لا يفوز بها الفرنجة. وأخذ يلح بذلك على نور الدين، الذى ما لبث أن استجاب له، خاصةً وأن شيركوه قد استعان فى هذا الشأن بالخليفة العباسى فى بغداد. وبدوره، لم يكف عمورى عن إغراء نبلاء وفرسان مملكة بيت المقدس بالاستيلاء على مصر.

◎ من الإسكندرية إلى الصعيد

غادر شيركوه وجيشه دمشق فى يناير 1167. واصطحب معه، هذه المرة أيضاً، صلاح الدين ابن أخيه. ومرة أخرى، حالما علم شاور بنبأ هذه الحملة، توجه إلى طلب النجدة من عمورى الذى جمع كبار قادته، للتشاور فى الأمر. وحذرهم من مغبة استيلاء السوريين على مصر. وبناء على ذلك، تمت الموافقة على الاستجابة لطلب شاور، وإرسال جيش لمساعدته. وقبل أن يكتمل حشد القوات الفرنجية، تلقى ملك بيت المقدس نبأ اجتياز شيركوه لصحراء سيناء. وجمع عمورى بعض العساكر بسرعة، وكلفها بالقيام بتعطيل مسيرة شيركوه. ولكنها لم تستطع تنفيذ ذلك، فقد توجه نور الدين نفسه إلى جنوب الشام، كى يحمى جيش شيركوه من أى هجوم على جناحه. ولم يأت اليوم الثلاثون من يناير إلا وكان الجيش يغادر عسقلان، ولم يتوقف إلا عند "الفسطاط" ــ وهو اسم "المدينة" التى إنشائها عمرو بن العاص حين فتح مصر، وتقع إلى الجنوب من "القاهرة" الفاطمية.

كانت هذه الجولة ، وهى الثانية ــ من جولات التسابق بين نور

الدين وعمورى على مصر جولة طويلة نسبياً، وتعددت فيها المعارك التى امتدت من المنيا، فى الصعيد إلى الإسكندرية. وكان كل طرف من الطرفين يظنها الجولة الحاسمة فى الصراع.

سار شيركوه بقواته من الفسطاط إلى أطفيح ـ حوالى 60 كيلو متراً جنوب القاهرة ـ ومنها عبر نهر النيل إلى ضفته الغربية، وتوجه مرة أخرى إلى الشمال، حتى الجيزة، فى مواجهة القاهرة. ولما اقتربت قوات عمورى من القاهرة، خرج شاور لاستقباله، وقاده إلى معسكر قرب القاهرة.

أرسل شيركوه مبعوثاً منه يدعو شاور إلى التعاون معه ضد الفرنجة. ولكن شاور لم يعط هذا العرض أى اهتمام، وأبرم بدلاً من ذلك ـ اتفاقاً مع عمورى تضمن أن يدفع شاور للفرنجة 400 ألف دينار، يدفع نصفها فوراً، ويدفع النصف الباقى فيما بعد. فى مقابل ذلك، طلب شاور من عمورى عهداً بألا يغادر مصر إلا بعد طرد شيركوه منها.

◎ فى بلاط الخليفة

أعطى عمورى هذا الاتفاق أهميه كبيرة، ولما كان يعرف تقلب شاور، فإنه طلب موافقة رسمية على الاتفاق من جانب الخليفة الفاطمى. وبالفعل، بعث ملك مملكة بيت المقدس ببعثه خاصة إلى البلاط الفاطمى، ضمت اثنين من كبار قادته. وأعد شاور استقبالاً حافلاً لهذه البعثة، وقد حرص وليم الصورى فى كتابه المهم على تسجيل مراسم هذا الاستقبال، وقدم لهذا الوصف بعبارة طريفة هى:

"لما كان قصر هذا الحاكم (أغنى الخليفة الفاطمى) فريداً فى نوعه ويسير على تقاليد لم نألفها فى الغالب فى عالمنا (الغربى) فقد رأيت من

الأوفق أن أدون بالتفصيل ما وقعت عليه من الأخبار الموثوق بها، والتى رواها من زاروا هذا الأمير العظيم، وأن أصف أحواله وعظمته وثراءه الفاحش، وأبهته التى تفوق الوصف، ذلك أن الحصول على فهم دقيق لكل هذا لن يذهب هباء من غير جدوى لقرائى".

وهو فعلاً وصف مجدٍ ومفيد، ويبين أن الخلافة الفاطمية وهى تحتضر كانت حريصة على الشكليات، وأن بطانة الخليفة ورجاله كانوا لا يزالون يوهمونه بأنه رجل قوى. وحتى شاور الذى كان يتلاعب فى الحقيقة بالخليفة كيف يشاء، حرص على أن يركع وبتعبير الصورى: "انطرح (أى شاور) على الأرض مرتين وقدم فروض الطاعة المهينة كما لو كان يقدمها لإله معبود، وذلك ترجمة عن إجلاله الذليل له، ثم ركع على الأرض مرة ثالثة ثم أمسك بسيفه الذى يتقلده والذى يتدلى من عنقه وألقاه على البساط". ومن الغريب أن يحدث كل هذا والخليفة لا يزال وراء ستار، لم يرتفع إلا بعد أن أدى شاور فروض الطاعة والولاء، وعندها "انزاحت فى سرعة عجيبة الستائر المرصعة بالجواهر والذهب، وظهر العرش خلفها، والخليفة سافر الوجه، جالس على تخته الذهبى، وحوله طائفة من مستشاريه وعبيده، وقد بدأ منظره أكثر من منظر ملوكى، فدنا السلطان (شاور) منه بكل احترام وقبل فى مذلة قدميه وهو على عرشه" !!

وزين شاور للخليفة شروط المعاهدة ودعاه إلى الموافقة عليها. وهل كان يستطيع غير ذلك؟! ولكن أحد مبعوثى عمورى طلب من الخليفة أن يمهر الاتفاق بتوقيعه الكريم عن طريق المصافحة. وأثار هذا المطلب الاضطراب فى صفوف الحاشية التى لم تعهد ذلك من قبل. ولكن الخليفة

ابتسم ساخراً، ونزع القفاز من يده، وصافح المبعوث الفرنجي. وزاد الخليفة على ذلك بأن قدم لمبعوثي عموري الهدايا والتحف، رمزاً لسخائه الملوكي، حسب وصف الصوري.

ولم يؤثر هذا الاتفاق على مواقع الجيوش على الأرض، ظَلّ جيشا عموري وشيركوه شهراً يرقب كل منهما الأخر ويراقبه، دون أن يعبر أي منهما النيل إلى الضفة الأخرى لملاقاة عدوه ومنازلته. ولكن فجأة عبرت وحدة من قوات عموري إلى جزيرة وراق الحضر، ثم انتقلت منها إلى الضفة الأخرى للنيل، وبسرعة، ناور شيركوه بقواته. وبخفه حركة توجه إلى الجنوب، إذ يبدو أنه لمس من جانب أهل الصعيد ترحيباً به، واستعداداً لمساندة، وفي الوقت نفسه فإنه لم يكن يريد أن يواجه قوات عموري وشيركوه مجتمعة. وبالفعل، لم يتحرك عموري وشاور بقواتهما كاملة، بل تركا خلفهما جزءاً كبيراً منها في القاهرة، وقد أثار ظهور قوات الفرنجة في المدينة استياء أهلها.

وبالقرب من الأشمونين (إحدى مدن مركز ملوي بالمنيا) لحقت قوات شاور وعموري بقوات شيركوه، وبالقرب من المنيا، وعند "البابين" جرت المعركة التي أحرز فيها شيركوه النصر. ارتد شاور وحلفاؤه إلى القاهرة. ولسبب ما لم يتعقب شيركوه القوات المنسحبة، فربما ظن أن عموري سيعود من حيث أتى. لذلك، توجه شيركوه بقواته إلى الإسكندرية، وكان لها عندئذ وضع خاص، فقد كانت مُلتقى العلماء الخارجين من الأندلس، وهؤلاء لم يكن هواهم مع الدولة الفاطمية، بل كانوا يعادونها. ويبدو أن مواقفهم أثرت في أهل الإسكندرية، الذين لقوا قوات شيركوه

بالترحيب، وفتحوا له مدينتهم دون مقاومة، إعراباً منهم عن غضبهم من تحالف شاور مع الفرنجة.

وجد شيركوه تجاوباً شعبياً مصرياً فى قتاله ضد الفرنجة. لذلك لم يمكث طويلاً فى الإسكندرية، وترك فيها صلاح الدين ابن أخيه، ومعه قوة صغيرة. أعاد شاور وعمورى تنظيم صفوف قواتهما، واتجها بها إلى الإسكندرية وفرضا عليها الحصار، براً وبحراً. اشتد الحصار على صلاح الدين الذى طلب النجدة من عمه، فعاد إليه. وبدأت المشاورات بين الفريقين المتحاربين، على أن يخرج عمورى وشيركوه من مصر "وألا يتملكوا منها قرية واحدة" وفى الشام، قام نور الدين بمناورته المعهودة، فهاجم بعض معاقل الفرنجة، وفتحها واستولى عليها. تلقى عمورى أنباء تحركات نور الدين، فأصبح أكثر ميلاً لقبول العرض الذى تلقاه من شاور، عن طريق أسير وقع بين يديه فى معركة البابين. استقر الأمر على أن يغادر الفريقان مصر. ولكن عمورى لم يف بوعده كاملاً، إذ عقد اتفاقاً جديداً مع شاور، تعهد فيه الأخير بأن تبقى للفرنجة حامية فى القاهرة، تكون مفاتيح أبواب القاهرة بين يديها، كما يحصل الفرنجة على مائة ألف دينار من مصر.

انصرف عمورى وشيركوه من مصر، وكل منهما يُضمر فى نفسه التصميم على العودة إليها، والسيطرة عليها، خاصة وأن الفرنجة "اطلعوا على عوراتها". بينما كان شيركوه قد لمس تجاوباً شعبياً معه، ومع قواته، وغضباً على شاور وحلفائه.

رأى عمورى أنه فى حاجة إلى قوة تسانده فى الاستيلاء على مصر، إذ قَدر أن قواته غير كافية لأداء هذه المهمة. وكعادته، لم يقم شاور بدفع

المال الذى اتفق مع الفرنجة عليه. فضلاً عن ذلك أرسلت الحامية الفرنجية فى القاهرة أنباء إلى عمورى عن اتصالات يجريها الكامل بن شاور مع شيركوه، ويدعوه فيها إلى الحضور إلى مصر.

كان المحيطون بالملك عمورى يضغطون عليه من أجل العودة إلى مصر ولم يكن هو فى حاجة إلى من يدفعه إلى ذلك، ولكنه كان يحتاج إلى سند، فأرسل إلى الإمبراطور البيزنطى مانويل كوفين حملة عمورى الثالثة على مصر، سنة 1168م. يعرض عليه القيام بحملة مشتركة ضد مصر. ويبدو أن الإمبراطور كانت تراوده الفكرة نفسها، فقبل أن يتلقى عرض عمورى وأرسل إليه الرسالة التالية:

"لقد لاحظ الإمبراطور أن مملكة مصر التى ظلت حتى هذه اللحظة الحاضرة قوية، قد وقعت فى أيدى جنس ضعيف ألف الاسترخاء، كما أن الشعوب المجاورة لها هى الأخرى لم يفتها ما كان عليه حاكم مصر وأمراؤه من الوهن وعدم الكفاءة، مما يشير بوضوح إلى أنه يستحيل على هذه المملكة أن تستمر طويلاً فيما هى عليه الآن، وأنه لا بد تؤول حكومتها والإشراف عليها إلى غيرها من الأمم. وأن الإمبراطور مؤمن بأن باستطاعته بمساعدة الملك (أى عمورى) ـ أن يضمها إليه".

ومرة أخرى فإن الضعف يغرى الطامعين، خاصة إذا حل الضعف ببلد مثل مصر، لها من الموقع والأهمية ما يفوق كثيراً من بلاد العالم.

على أية حال، أرسل عمورى رسولا إلى القسطنطينية، هو المؤرخ وليم الصورى. وأبرم الجانبان اتفاقاً على غزو مصر، واقتسامها.

كان الفرنجة فى عجلة من امرهم. لم يستطيعوا انتظار الصورى

حتى يعود، فقد شاع بينهم أن شاور كاتب نور الدين من جديد، ودعاه إلى مساعدته فى أن يحل نفسه من كل اتفاق أبرمه مع الفرنجة. وأياً كان السبب، فإن عمورى خرج للمرة الثالثة قاصداً مصر، ووصل إلى بلبيس فى أواخر أكتوبر 1168. ولم تقو حاميتها على مقاومة الفرنجة أو دفعهم عنها. دخل الفرنجة المدينة، وعاثوا فيها فساداً لمدة خمسة أيام، وفى الوقت نفسه، أحدثت سفن الفرنجة تخريباً مماثلاً فى مدينة تنيس ببحيرة المنزلة.

◎ حريق الفسطاط

اتجه عمورى إلى القاهرة، وفى 13 نوفمبر سنة 1168 عسكر فى جنوبى الفسطاط. كان أهل القاهرة، فى هذه المرة، قد عزموا على المقاومة. حتى لا يتعرضوا لما تعرض له أهل بلبيس.

وجد شاور نفسه فى موقف حرج. لقد أثارت سياسته وتقلباته استياء أهل مصر. وفى محاولة منه لقطع الطريق على عمورى، دعا أهل الفسطاط إلى الخروج منها، ثم أشعل فيها النيران وظلت مُتقدة فيها أربعة وخمسين يوماً. تدفق أهل الفسطاط على القاهرة، وقد عقدوا العزم على مقاومة قوات الفرنجة، التى عسكرت أمام المدينة .. وفى هذه الأثناء، وصل أسطول الفرنجة إلى تنيس وبحيرة المنزلة، لكنه لم يستطع التقدم فى النيل، فقد سد المصريون مجراه. تراجع عمورى عن القاهرة، بعد أن حصل من شاور على مائة ألف دينار. ولما علم بنبأ تقدم شيركوه على رأس جيش كبير، أمر عمورى أسطوله بالانسحاب، والعودة إلى عكا.

كانت ساعة الحسم فى السباق على مصر تقترب. وكان الوعى بخطر الفرنجة يتزايد، لقد انضم الخليفة العاضد نفسه ـ تحت تأثيرات مختلفة ـ

إلى طالبى النجدة من نور الدين. وقيل إن الكامل ابن شاور كان من بين الذين أثروا على الخليفة الفاطمى، ودعوه إلى مُكاتبة نور الدين يدعوه، بأن يحضر بنفسه لإنقاذ مصر، كما أرسل إليه شعور نسائه، وقال له: "هذه شعور نسائى، من قصرى يستنجدن بك لتنقذهن من الفرنج". تلقى نور الدين الدعوة، ووجد الهدف الذى كان يسعى إليه قريباً منه، فأمر شيركوه بأن يتجهز للمرة الثالثة ـ وقد كانت الأخيرة ـ لدخول مصر. وأعد له ثمانية آلاف فارس وزوده بمائتى ألف دينار، وأمر صلاح الدين بأن يصحب عمه من جديد. ولم يستطع عمورى أن يقطع الطريق على قوات شيركوه وهى تتقدم إلى القاهرة، التى وصلت إليها فى أوائل يناير سنة 1169.

دخل شيركوه القاهرة. وهدفه الاستيلاء على مصر، وضمها إلى الشام فى مواجهة الفرنجة. ولكنه بالطبع لم يعلن ذلك، بل جاهر بأنه جاء لإنقاذ الدولة الفاطمية ووزيرها شاور. ووسط ترحيب الناس به، توجه شيركوه إلى قصر الخلافة، حيث أكرمه العاضد. ومرة أخرى، عاد شاور إلى طبعه، فقد امتلأ قلبه حقداً ضد شيركوه، فأرسل من جديد يستدعى الفرنجة لنجدته، ونصحهم بأن "يكون مجيئكم فى دمياط، فى البحر والبر". وحاول تدبير مؤامرة للقضاء على شيركوه، ومن معه من الأمراء. ولكن ابنه الكامل نهاه عن ذلك بقوله: "والله لئن عزمت على هذا الأمر لأُعَرِّفن أسد الدين".

فقال شاور لابنه:

"والله لئن لم نفعل هذا لنقتلن جميعاً".

رد الكامل قائلاً:

"صدقت، ولئن نُقتل ونحن مسلمون والبلاد بيد المسلمين خير من أن نُقتل وقد ملكنها للفرنج".

ربما لم يجر الحوار بين شاور وابنه على هذا النحو، وربما لم يحدث نهائياً، ولكن حرص المؤرخين على روايته إن دل على شئ فإنما يدل وبشكل قاطع على أن عصر شاور، عصر الخداع والتحالف مع الفرنجة، قد بدأ فى الغروب، وأن هناك عهداً جديداً يقترب. وسواء عدل شاور عن مؤامرته، أو عجز عن تنفيذها، فإن الدائرة ما لبثت أن دارت عليه، إذ اجتمع "أعيان الدولة بمصر" عند شيركوه، وقالوا له: "شاور فساد العباد والبلاد، وقد كاتب الفرنج، وهو يكون سبب هلاك الإسلام"

دعا هؤلاء الأعيان شيركوه إلى ما دعاه إليه وألح عليه فيه صلاح الدين ابن أخيه، وهو التخلص من شاور بقتله. ونجح صلاح الدين ومعه مجموعة من الجنود فى استدراج شاور إلى ضريح الإمام الشافعى. وقاموا بقتله. وقيل إن رأسه ألقيت عند قدمى الخليفة العاضد، الذى ربما تشفى مما ألحقه شاور به. كما أبيحت دوره وقصوره للأهالى فنهبوها.

قلد العاضد، بعد قتل شاور، شيركوه منصب الوزراء، ولقبه "الملك المنصور وسلطان الجيوش، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين" كان لدخول مصر فى دولة نور الدين أثر بعيد ليس فى مملكة بيت المقدس، والإمارتين الفرنجيتين الأخرتين، أى طرابلس وإنطاكية، فقط،بل فى أوربا الغربية كلها. فقد زاد انزعاج الفرنجة من هذا الحدث إذا أدركوا أن ممتلكاتهم فى الشام أصبحت "على شفا جرف هاو".

أما نور الدين فقد استقبل بفرح أنباء انتصار شيركوه وقواته وتوليه

الوزارة في مصر. ولكنه كان يدرك أن الأمور في مصر لن تصفو ولن تستقر سريعاً، خاصة بعد أن جاءه نبأ وفاة شيركوه، وهو لم يستمر في الوزارة سوى شهرين وخمسة أيام، وكانت وفاته في الثالث والعشرين من مارس سنة 1169.

✠ ✞ ✠

رحيل نور الدين

◎ الملك الناصر

كانت وفاة شيركوه مفاجئة، حتى قيل ـ فيما قيل ـ إنه مات بالسم. ووجهت سهام الاتهام إلى الخليفة الفاطمي. ولم يتورع البعض عن اتهام صلاح الدين ابن أخيه، بدعوى أن السياسة لا قلب لها. ولكن صلاح الدين ـ فيما روى بعض المؤرخين ـ لم يكن متحمساً للعودة مع عمه إلى القاهرة، مرة ثالثة، بسبب ما لحق به، في المرة الماضية، في الاسكندرية، وهي تحت الحصار. ربما كانت هذه الروايات من قبيل الحكايات التاريخية التي تحاول أن تبين أن صلاح الدين كان عازفاً عن السلطة.

وعند وفاة شيركوه تسابق عدد من قواد جيشه على خلافته في منصب الوزارة، وهي ليست أية وزارة، إنها وزارة مصر، حيث كان الوزير هو الأمر الناهي، والحاكم الفعلي، والسيد المطاع. ولكن بعض مستشاري العاضد زكوا صلاح الدين لديه. بعضهم لما لمسه منه عن قرب من شجاعة وحصافة، وبعضهم بسبب صغر سنه، بحيث لا يستطيع فرض نفسه على الخليفة. والواضح أن مماليك شيركوه ـ كانوا حوالي خمسمائة ـ بجانب الأمراء الأكراد من أسرة بني أيوب كانوا أحد العوامل المؤثرة في اختيار صلاح الدين وزيراً، وهو في الثانية والثلاثين من العمر، وتم تقليده الوزارة في 26 مارس، ولقب بـ "الملك الناصر".

تولى صلاح الدين مقاليد الوزارة في مصر في ظروف صعبة:

حاشية الخليفة لا تواليه، بل لا تثق فيه، وقوى كثيرة فى الداخل تنتظر لحظة مناسبة لضربه والقضاء عليه. أما الفرنجة فلم يكونوا ليصرفوا أنظارهم عن مصر بشكل نهائى. وحتى نور الدين لم يكن ينظر إلى صلاح الدين على أنه "وزير مصر" بل يعتبره قائد جنوده فيها.

إذن، كانت الأخطار تتربص بالوزير الشاب من الداخل ومن الخارج، ولم يكن المتربصون ليمنحوه فرصة يلتقط فيها أنفاسه، ويرتب أوراقه، بل سعوا إلى الوثوب عليه قبل أن يهدأ ويستريح، ويتفرغ لهم من مركز قوة.

وخلافا لكل التوقعات فإن صلاح الدين نجح وبسرعة فى توطيد سلطته، وفى جمع الأمور بين يديه. ولا حاجة للخوض، الآن، فى كيف نجح صلاح الدين فى تحقيق هذا، وهل اعتمد فى ذلك على مقدرة ذاتية أو على عدد من المعاونين، على رأسهم القاضى الفاضل؟ سنتطرق إلى ذلك بقدر من التفصيل فى الحلقة القادمة من هذه "الصفحات". ولكن نتطرق هنا إلى مؤامرات القصر"، فقد كانت أول مؤامرة واجهها صلاح الدين هى تلك التى تزعمها جوهر "مؤتمن الخلافة"، واستهدفت الخلاص منه، بوسائل منها دعوة الفرنجة إلى العودة إلى مصر، وعند خروج صلاح الدين إلى لقائهم، يتم القبض على من يبقى من رجاله فى القاهرة، ثم ينضم المتآمرون إلى الفرنجة، فى محاربته والتخلص منه.

اكتشف صلاح الدين المؤامرة. وفرض رقابة مشددة على تحركات واتصالات "مؤتمن الخلافة" الذى كان يحظى بثقة الخليفة العاضد. ثم تمكن من قتله فى أواخر عام 1169، وأثار ذلك ثائرة جند الخليفة،

وغاليتهم من السودانيين، الذين خاضوا معركة عنيفة ضد صلاح الدين، الذى احرق منازلهم، ونجح فى طردهم من القاهرة، ومطاردتهم إلى الصعيد.

قتل "مؤتمن الخلافة" يوضح أن طريق صلاح الدين فى القاهرة لم يكن مفروشاً بالورود، كما يبين أنه لم يكن يتردد فى اللجوء إلى الوسيلة التى تمكنه من الخلاص من مناوئيه.

وما أن قضى صلاح الدين على مؤامرة "مؤتمن الخلافة" حتى واجه مشكلة أخطر، وهى أن الفرنجة لم يكن ليهدأ لهم بال وهم يرون نور الدين يبسط سلطانه على مصر. وبالفعل، وجه عمورى نداءً إلى دول الغرب، وأرسل سفارة إلى جميع كبار رجال الغرب ليحول نظرهم إلى "الأمور المفجعة" التى أصبحت تواجه مملكة بيت المقدس. ولكن عمورى لم يجد من يستجيب له، فاتجه مرة أخرى إلى الإمبراطور البيزنطى، وجدد الاتفاق الذى سبق أن عقده معه، كى يقوما معاً بغزو مصر. وفعلاً وصلت الحملة البيزنطية إلى دمياط فى أكتوبر 1169، ولكن قواتها عانت نقصاً شديداً فى الأغذية، حتى كادوا يموتون جميعاً. وأبدى الجيش المدافع عن دمياط شجاعة كبيرة، فى حين هبت عاصفة عاتية فخربت معسكر الفرنجة. وفشلت هذه الحملة، وانسحبت من أمام دمياط فى أواخر العام. وكان هذا الفشل عاملاً أخر فى تدعيم مركز صلاح الدين فى مصر، فقد كسب تعاطف المصريين واتفاقهم على محاربة أعدائهم الفرنجة.

وفى هذه الأثناء، كان صلاح الدين يتعرض للضغط من جانب الخليفة العباسى فى بغداد، ومن جانب نور الدين كى تتم الخطبة باسم العباسيين، والدعاء لخليفتهم المستضيئ بنور الله. ولم يتم هذا إلا فى

سبتمبر 1171. ولم يعلم العاضد بما حدث، فقد كان يعانى سكرات الموت، ومع حرص أهله على ألا يتطرق الخبر إليه، فإنه حين علم بما حدث، وبحذف أسمه من الخطبة، تدهوزت صحته، وتوفى بعد خمسة أيام من هذا النبأ، وقيل بعد ثلاثة فقط، فى منتصف سبتمبر 1171، ومن هذا اليوم "استقر قدم (بنى) أيوب فى مصر، واستثبت الملك لهم".

◎ نهاية .. وبداية

وقد اختلفت الروايات حول موقف المصريين عند سقوط الخلافة الفاطمية. قال البعض إن ذلك تم وسط لامبالاة شاملة. وقال آخرون إن المصريين فرحوا بذلك، فى حين قال فريق ثالث: "إن نفوس المصريين كادت تُزهق لانتهاء دولة الفاطميين "التى سماها أحد المؤرخين "دولة المصريين" فلا شك أن هذه الدولة كانت لها أمجادها، ويكفى أنه فى ظلها تم تعريب مصر.

وتعدد الآراء واختلافها حول موقف المصريين من سقوط الخلافة الفاطمية يعنى أن المصريين فى ذلك الوقت كانوا فى حالة اضطراب، منهم من استفاد من الفاطميين وأمن بأفكارهم فهو معهم، ومنهم من لم يستفد ولم يؤمن بآرائهم فهو عليهم .. ومنهم الثابت على رأيه، بجانب الذى يتقلب مع الأحداث. وعنى هذا كله، فيما عناه، أن مصر لم تخضع بعيد بالكامل لسلطان صلاح الدين الأيوبى، بل إنه وجد مقاومة، ومقاومة عنيفة, وتمثل هذا فى مؤامرة دبرها فى أبريل 1174 من بقى من أنصار الدولة الفاطمية. ويبدو أن عددهم لم يكن قليلاً. وأنهم استطاعوا أن يجروا اتصالات مع الفرنجة ومع زعيم فرقة الحشاشين، كما اتصلوا بملك صقلية. لقد كان التدبير فى هذه المرة ـ أكثر إحكاماً مما حدث على يدى "مؤتمن

الخلافة"، كما أن صلاح الدين أصبح ـ بدوره ـ أكثر خبرة بكيفية مكافحة مثل هذه المؤامرات. إذ دس في وسطهم من كان ينقل إليه أخبارهم تفصيلاً، مما جعله يُمسك بخيوط المؤامرة، ويضرب رءوس المتآمرين وكانت هذه آخر المؤامرات الكبيرة التي دبرها أنصار الفاطميين في مصر ضد صلاح الدين.

ومنذ أن بدأت الأمور في مصر تستقر بين يدي صلاح الدين، بدأ يبحث مع نور الدين عن وسيلة تكفل الاتصال المباشر براً بين مصر والشام، حيث كانت حصون الفرنجة في الكرك والشوبك وايلة ـ بجانب سيطرتهم على الأردن ووادي عربة ـ تمكنهم من التحكم في صحراء النقب، وقطع الاتصال بين مصر والشام، أي بين صلاح الدين ونور الدين. وبالفعل، تمكن صلاح الدين من ضرب إحدى حلقات الحصار البري الذي فرضه الفرنجة، حينما هاجم ايله براً وبحراً، واستولى عليها في ديسمبر 1170. وفي الشهر التالي، أي في يناير 1171، تمكن نور الدين من دخول الموصل، وعين أحد رجاله نائباً عنه في حكمها, وبذلك أصبحت جبهة المقاومة العربية والإسلامية في مواجهة الفرنجة عندئذ من العراق إلى مصر عبر الشام، فها هي القاهرة تحتل مكانها الصحيح في خط يمتد من الموصل وحلب ودمشق إلى عاصمة مصر.

ومع ذلك، فإن جفوة حدثت بين نور الدين وصلاح الدين، وإن كان البعض يحاول إنكارها، أو نفيها، أو تغليفها، ناسياً أن القادة بشر، هم ومنهم نقاط ضعف، كما أن فيهم نقاط قوة. وما من قائد إلا وله أخطاؤه وهفواته وخطاياه. وحين أصبح صلاح الدين مركز قوة في مصر، أدرك أهمية دورها الحاسم في المعركة ضد الفرنجة، بينما كان نور الدين يرى أن

أرض الشام هـي الميـدان الـذى ستحسـم فيـه المعركـة. ومـن ثـم كـان لكـل منهمـا أسـلوبه فـى إدارة دفـة الأحـداث. ففـى أكتوبـر 1171، دعـا نـور الديـن نائبـه فـى مصـر صـلاح الديـن إلى التقـدم لمهاجمـة حصـن الشـوبك، وبحيـث يسـير هـو أيضـاً إليـه، ويتعاونـان فـى الاسـتيلاء عليـه. أطـاع صـلاح الديـن دعـوة نـور الديـن، وسـار إلى الشـوبك، وحـاصره وضيـق الخنـاق عليـه، حتـى كـاد الحصـن يسـقط بـين يديـه. وحـين علـم بخـروج نـور الديـن بقواتـه مـن دمشـق، رفـع الحصـار عـن الحصـن، وعـاد بقواتـه إلى مصـر، وكتـب إلى نـور الديـن أن الموقـف فـى القـاهرة يثـير الريبـة وأنـه يخشـى مـن انقـلاب يدبـره أنصـار الفـاطميين. لـم يطمئـن نـور الديـن لمـا ذكـره صـلاح الديـن، بـل غضـب منـه، لدرجـة أنـه انتـوى المسـير إلى القـاهرة وإخـراج صـلاح الديـن منهـا.

ويبـدو أن صـلاح الديـن كـان يعيـش تحـت تأثـير الخلافـات والصراعـات الداميـة التـى كـانت تـدور بـين حكـام المـدن والولايـات فـى منطقـة الجزيـرة وشـمال الشـام، ممـا جعلـه يخشـى انقـلاب نـور الديـن عليـه، ولذلـك حـاول أن يبحـث لنفسـه عـن مكـان أمـن لـو تعـرض لشـىء مـن هـذا القبيـل، فغـزا النوبـة بحملـة كبيرة قادهـا أخـوه طورانشـاه. وكـان هـذا فـى سـنة 1172.

ولكـن كـلا مـن الرجلـين كـان يعـرف أنـه فـى حاجـة إلى الآخـر، بقـدر حاجـة دمشـق إلى القـاهرة، وحاجـة القـاهرة إلى دمشـق، كـى تواجههـا الفرنجـة، وتحققـا النصـر عليهـم. ولذلـك، عـادت الميـاه إلى مجاريهـا بـين نـور الديـن وصـلاح الديـن بدليـل أنهمـا اتفقـا علـى مهاجمـة حصـن الكـرك. فقـد كـان نـور الديـن مهمومـاً بضـرب هـذا الحصـن وضـرب حصـن الشـوبك حتـى يضمـن التواصـل البرى بـين مصـر والشـام. وخـرج فعـلاً صـلاح الديـن مـن القـاهرة، وحـاصر

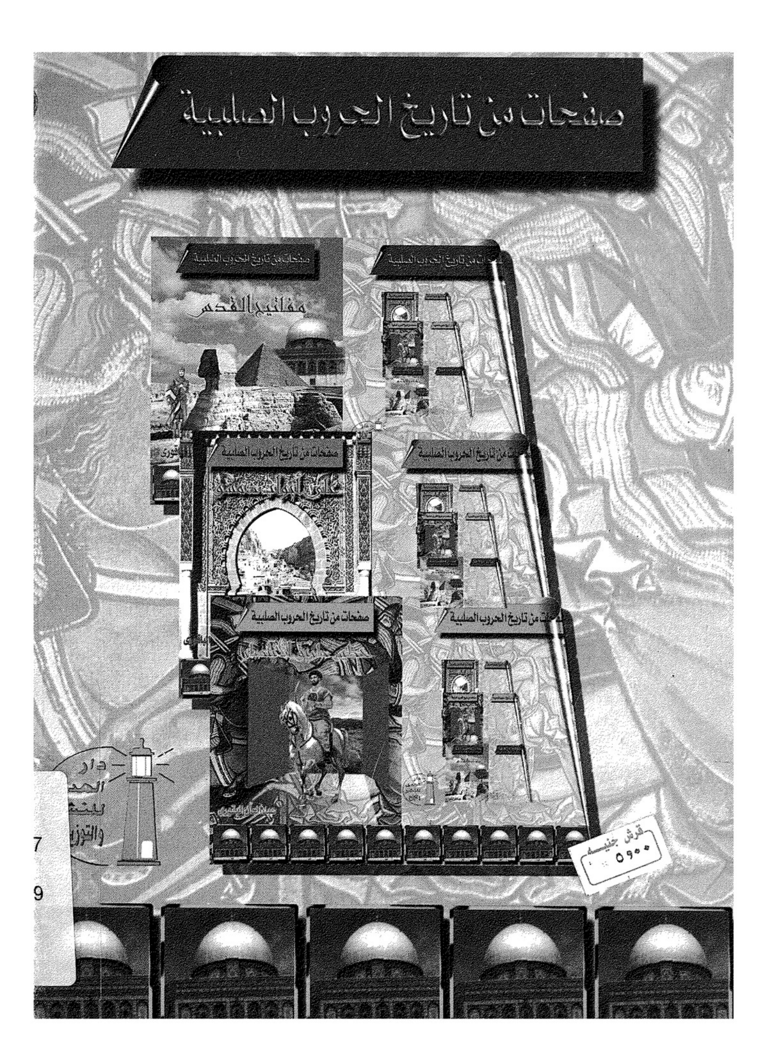
الكرك كما حاصر الشوبك من قبل، تم انسحب راجعاً مرة أخرى إلى القاهرة، بعد أن علم بقرب وصول نور الدين إلى الكرك. وتعلل صلاح الدين فى هذه المرة بعرض والده مرضاً شديداً. وفى هذه المرة، اشتعل غضب نور الدين، وفكر مرة أخرى فى اللجوء إلى القوة لإخراج صلاح الدين من مصر. ولم يكن هذا بعيداً عن تفكير صلاح الدين الذى حاول من جديد البحث لنفسه عن قاعدة أمينة، وجدها هذه المرة فى اليمن، التى وجه إليها أخاه طورانشاه أيضاً فى أواخر 1173.

ولكن الموت عاجل نور الدين فى 15 مايو سنة 1174، وهى السنة نفسها التى قضى فيها صلاح الدين على مؤامرة أنصار الفاطميين فى مصر. وبذلك، تخلص من أكبر قوتين كانتا تحدان من حريته فى الحركة. وخلا له الجو فى مصر. وبعد شهر من رحيل نور الدين، مات عمورى ملك مملكة بيت المقدس.

وهكذا لم تأت الحوادث فرادى، بل تجمعت ثلاث منها لتضع نهاية لمرحلة من النضال ضد الفرنجة، لتبدأ مرحلة جديدة، تستكمل ما بدأ فى المرحلة السابقة، خاصة على يدى عماد الدين وابنه نور الدين. وها قد جاء صلاح الدين، وها هو فى القاهرة، يمسك فعلاً بمفاتيح بيت المقدس.

✠ ✞ ✠

المحتوى



صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
مفاتيح القدس
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
صفحات من تاريخ الحروب الصليبية
دار
قرش جنيه
٥٩٠٠